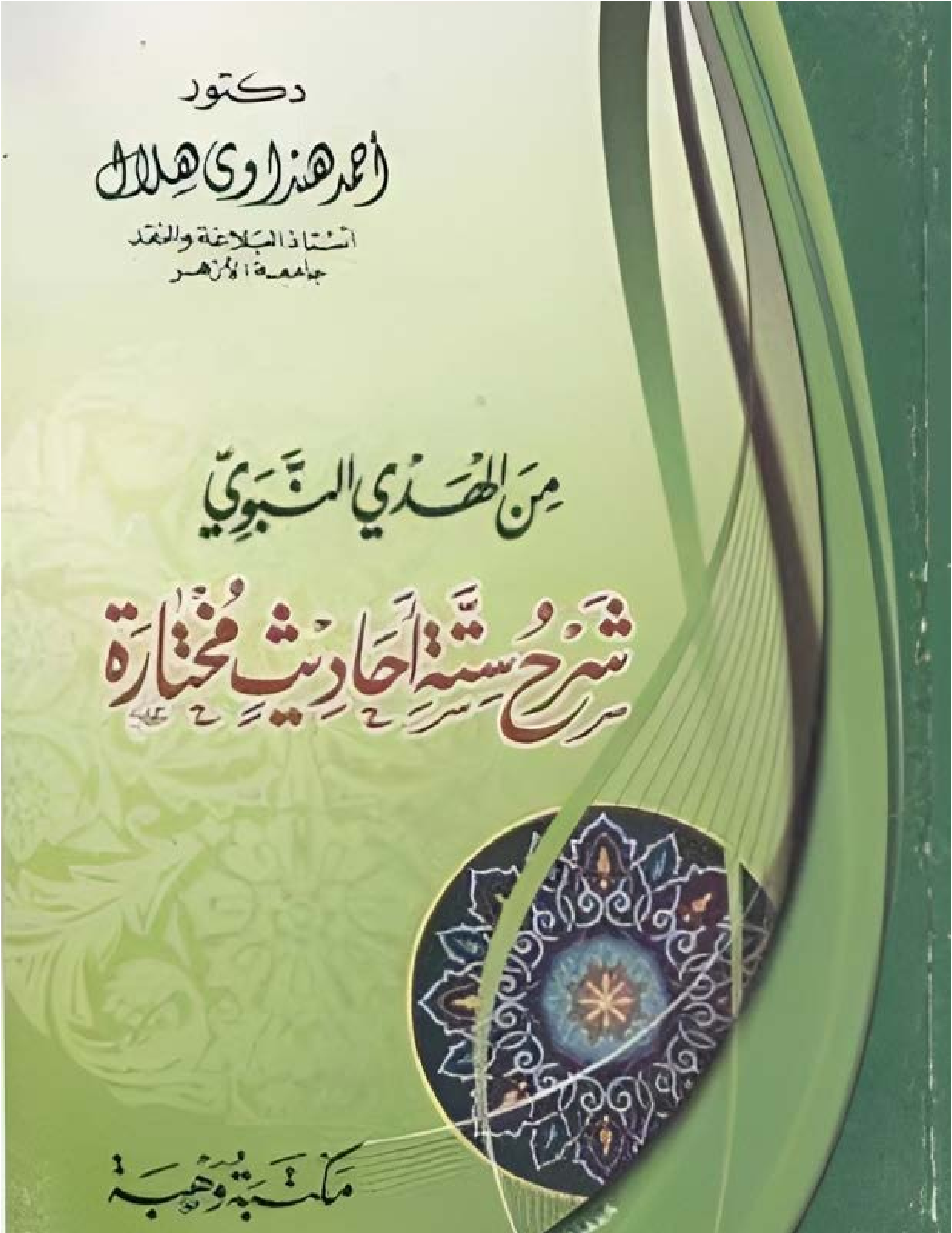


دكتور
أحمد هنداوي هلال
أستاذ البلاغة والنقد
جامعة الأزهر
من الهدي النبوي
شرح ستة أحاديث مختارة
مكتبة وهبة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

(وبعـــد)

فقد أسند إليَّ تدريس مادة الحديث النبوى الشريف لطلاب السنة الثانية من مرحلة الإجازة العالية فى كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر بالمنوفية فى العام الدراسى ١٩٩٠ - ١٩٩١م وقد اخترت ستة أحاديث، وشرحتها شرحًا وافيًا - حسب الجهد والطاقة - وحرصت على تناول بعض المباحث اللغوية، والملامح البلاغية التى عرض لها الشراح فى كتبهم، بالإضافة إلى الشرح الإجمالى، والتفصيلى لتلك الأحاديث، وتدعيم هذا البيان بشواهد من الآيات القرآنية الكريمة، والبيان النبوى فى مواضع أخر.

وقد أفدت من المصادر المذكورة فى صلب الشرح، وهامشه، وغيرها، مثل كتاب (من هدى النبوة...) لأستاذنا (الشرباصى الحسنين) و(المختار من التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح... للزبيدى) و(شرح الجردانى على الأربعين حديث النووية) وغير ذلك من المقالات التى تناولت شرح بعض هذه الأحاديث.

وقد ذيلت هذا العمل بفهرس للأحاديث الستة، وما جاء خلال بيانها من قضايا متنوعة.

ومما يجدر ذكره أن هذا الشرح لم يطبع قبل ذلك، ولكنه أُمْلِيَ على الطلاب فى حينه، ولم أضف إليه جديداً، وقد بدا لى أن أطبعه، لعل فيه إفادة لطلاب العلم، والمحبين للبيان النبوى الشريف.

(ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا).

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الدكتور

أحمد هنداوى هلال

طنطا غرة ذى القعدة ١٤٣١هـ

الموافق ٩/١٠/٢٠١٠م

الحديث الأول

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان**». رواه البخارى ومسلم

راوى الحديث :

راوى هذا الحديث هو الصحابى الجليل عبد الله بن عمر ابن الخطاب - رضى الله عنهما - أحد العبادلة الأربعة وهم: عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله ابن عباس، وعبد الله بن الزبير - رضى الله عنهم أجمعين -

وقد ولد عبد الله بن عمر قبل البعثة، وأسلم مع أبيه، وهو فى مقتبل العمر، وهاجر معه إلى المدينة، ولم يشارك فى غزوة بدر وغزوة أحد لصغر سنه، ولكنه شارك فى غزوة الخندق وما بعدها.

وكان من فقهاء الصحابة وعبادهم، فقد حج ستين حجة،

واعتمر ألف عمرة، وأنفق المال الكثير في سبيل الله طمعًا في ثوابه، وابتغاء مرضاته.

المعنى الإجمالي

في هذا الحديث يبين رسول الله ﷺ أن الإسلام قد أسس، وارتفع بناؤه على هذه الأمور الخمسة: إفراد الله - عز وجل - بالألوهية، والإقرار بأن محمداً ﷺ رسول الله وخاتم الأنبياء والمرسلين، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً.

فمن أتى بهذه الأمور، وعمل بمقتضاها، فقد كمل إيمانه، وحسن إسلامه، ونجا (إن شاء الله تعالى) من النار، ودخل الجنة بفضل الله ورحمته، فقد روى أن أعرابيًا أتى النبي ﷺ فقال: دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة قال: «تعبد الله ولا تشرك به شيئًا وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان» قال: والذى نفسى بيده لا أزيد على هذا شيئًا أبداً ولا أنقص منه فلما ولى قال النبي ﷺ: «من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا». رواه مسلم

مباحث لغوية :

(الإسلام) نائب فاعل أى بناه الله تعالى .

(على خمس) بتذكير العدد فيكون المعدود مؤنثًا أى خمس خصال أو قواعد، وقد روى (خمسة) بالتأنيث فى رواية لمسلم جاء فيها « . . . بنى الإسلام على خمسة أن يوحد الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان والحج . . . » .

وعليها يقدر المعدود مذكرًا أى خمسة أركان أو أصول، ويصح تقدير المعدود مذكرًا، أو مؤنثًا على كل من الروايتين (خمس وخمسة) لأن المعدود إذا لم يذكر يجوز تذكير العدد وتأنيثه كما فى قوله ﷺ : « من صام رمضان ثم أتبعه ستًّا من شوال كان كصيام الدهر » أى ستة أيام، وكما فى قوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا** ﴾ [البقرة : ٢٣٤] أى عشرة أيام .

(أن لا إله إلا الله) (أن) مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن و(لا) نافية للجنس و(إله) اسمها، وخبرها محذوف تقديره موجود – مثلاً – ولفظ الجلالة مرفوع على أنه بدل من الضمير فى الخبر ، والجملة خبر (أن) .

(وإقام الصلاة) أصل إقام إقامة مصدر أقام حذفت منه التاء، وهو مصدر مضاف إلى مفعوله. والصلاة فى اللغة الدعاء قال تعالى: ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [التوبة: ١٠٣] وقال ﷺ: «الملائكة تصلى على أحدكم ما دام فى مصلاه الذى يصلى فيه تقول: اللهم صل عليه اللهم ارحمه، اللهم اغفر له، ما لم يحدث، أو يخرج من المسجد».

(إيتاء الزكاة) إيتاء مصدر آتى أى أعطى والزكاة اسم مصدر من الفعل زكى ومعناها فى اللغة الطهارة والنماء.

(وحج البيت) أى قصد بيت الله بمكة المكرمة.

(وصوم رمضان) صوم مصدر الفعل صام ومعناه فى اللغة أمسك، ومنه قوله تعالى حكاية عن مريم عليها السلام: ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا ﴾ [مريم: ٢٦] أى إمساكًا عن الكلام.

(ورمضان) أى شهر رمضان ويجمع على رمضانات، ورمضانون وأرمضة.

ملامح بلاغية :

جملة ﷺ خبرية لفظًا إنشائية معنى وهى دعاء إلى الله عز وجل أن يصلى، ويسلم على عبده ورسوله محمد ﷺ.

والتعبير عن الإنشاء بالخبر يفيد توكيد الكلام وتقريره؛ لأن فيه إبرازاً للمطلوب في صورة الواقع الموجود. قال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٨] «فإن قلت: فما معنى الإخبار عنهن بالتربص؟ قلت هو خبر فى معنى الأمر، وأصل الكلام وليتربص المطلقات، وإخراج الأمر فى صورة الخبر تأكيد للأمر، وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله، فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص، فهو يخبر عنه موجوداً، ونحوه قولهم رحمك الله أخرج فى صورة الخبر ثقة بالاستجابة، كأنما وجدت الرحمة فهو يخبر عنها..»[١].

فكأن المؤمن الذي يدعو الله أن يصلي ويسلم على رسوله الكريم يشعر فى قرارة نفسه أن الله قد استجاب دعاءه، وحقق مبتغاه، فهو يخبر عنه موجوداً، ومعلوم أن المؤمن يدعو الله وهو موقن بالإجابة.

والمسلمون جميعًا مأمورون بالصلاة والسلام على نبيهم ﷺ فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

---

(١) الكشاف ١/١٣٧.

(بنى الإسلام) يمكن أن تجرى فى (الإسلام) استعارة مكنية وهى التى يحذف فيها المشبه به ويرمز إليه بشىء من لوازمه حيث شبه الإسلام ببيت شامخ البناء قوى الدعائم والأركان ثم حذف ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو البناء، وإثبات البناء للإسلام تخييل، ويمكن أن تجرى فى (بنى) استعارة تصريحية تبعية، فيقال : شبه ثبات الإسلام، واستقراره ببناء البيت المحكم، ثم استعير البناء لثبات الإسلام، واستقراره، ثم اشتق منه بنى بمعنى ثبت واستقر، وفيها استعارة المحسوس للمعقول، وتلاحظ أنها تصريحية، لأنه صرح فيها بالمشبه به، وتبعية لأنها فى الفعل الماضى (بنى).

(لا إله إلا الله) وفى كلمة التوحيد قصر صفة الألوهية على الله تعالى قصراً حقيقيًّا تحقيقيًّا بطريق النفى والاستثناء، نفى الألوهية عن كل ما سوى الله تعالى وإثباتها له، وحده.

شرح وبيان

يلاحظ أن جملة (رضى الله عنهما) فى الحديث وهى جملة دعائية وردت بضمير المثنى فى (عنهما) لأن راوى الحديث، وأباه كانا صحابيين وهما عبد الله بن عمر، وأبوه عمر ابن الخطاب.

وينبغي لمن ذكر صحابيًّا، وكان لأبيه صحبة أن يترضى عنهما؛ لأن الصحابة هم أفضل هذه الأمة، وهم الذين تحملوا عبء نشر الإسلام وبذلوا في سبيله كل غال وثمين، ولن يبلغ أحد من أفراد الأمة مهما علت منزلته معشار فضلهم، وعطائهم - رضي الله عنهم أجمعين -

(بني الإسلام) يبدو أن كلمة الإسلام في الحديث تشمل الإيمان أيضًا؛ لأنه من غير المعقول أن يقصد من شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله مجرد نطق اللسان، دون إيمان القلب واعتقاده الجازم بمدلولهما، والإيمان، والإسلام وإن اختلفا في المفهوم إلا أنهما متلازمان شرعا، فلا يوجد أحدهما دون الآخر في ميزان الشرع، وإن كان النطق بالشهادتين يعتبر دليلا على الإسلام في ظاهر الأمر.

(على خمس) قد يتساءل إذا كان الإسلام هو هذه الأركان الخمسة فكيف يقال: بني الإسلام عليها والمبني غير المبني عليه؟ ويجاب عن ذلك بأن على بمعنى من أي بني الإسلام من هذه الخمسة، وأيضًا فإن هذه الأمور ليست هي الإسلام كله، بل هي أسسه الأصيلة، وقواعده المتينة، وهي تمثل الحد الأدنى لعمل

المسلم، وقد فتح الله أبواب الخير، والأعمال الصالحة على مصاريعها لمن أراد الاستزادة منها، فَهِمَمُ الناس متفاوتة، وقدراتهم مختلفة، وعلى قدر أهل العزم تأتى العزائم، ومن حكمة الله عز وجل أنه جعل الجنة درجات، ليتسابق إليها المتسابقون ﴿ **وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ** ﴾ [المطففين: ٢٦] .

ولم يذكر الجهاد من هذه القواعد وهو فى ذروة أعمال الإسلام؛ لأنه فرض كفاية، إذا قام به البعض، سقط عن الباقين، ولا يكون فرض عين إلا فى أحوال معينة، ولا يجب على كثير من أصحاب الأعذار.

(شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله) جاء فى لسان العرب (لابن منظور) أن الشهادة خبر قاطع، ونقل عن بعض اللغويين فى قول المؤذن: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، أعلم أن لا إله إلا الله، وأبيّن أن لا إله إلا الله، وأعلم أن محمداً رسول الله، وأبيّن أن محمداً رسول الله.

وعلى ذلك تكون تلك الشهادة هى الإخبار القاطع عن علم، ويقين أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ولابد أن يوافق القلب اللسان فى هذه الشهادة حتى تكون مقبولة، فإذا لم

يوافق القلب اللسان فيها كانت زوراً، وبهتاناً؛ ولذلك رد الله شهادة المنافقين لرسول الله وحكم عليهم بالكذب فى قوله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون: ١] وقد كذبهم الله؛ لأنهم قالوها بألسنتهم، ولم تؤمن بها قلوبهم.

وقد جاءت الشهادة للرسول ﷺ فى الحديث مقترنة بكلمة التوحيد، وملازمة لها؛ لأنه لابد من كلتا الشهادتين فلا تغنى إحداهما عن الأخرى، ولهذا جاءتا مقترنتين فى الأذان والتشهد.

وهذه الشهادة بجناحيها مفتاح الدخول فى الإسلام وبدونها لا يقبل من العبد صلاة، ولا زكاة، ولا صوم، ولا حج، ولا أى عمل صالح، ومن قالها حكم بإسلامه فى الظاهر والله يتولى السرائر؛ ولذلك عاتب رسول الله ﷺ أسامة بن زيد (رضى الله عنهما) عتاباً شديداً عندما قتل رجلاً قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فقد جاء فى تفسير الفخر الرازى عند تفسير قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ... ﴾ [النساء: ٩٤].

– عدةُ روايات فى سبب نزول هذه الآية:

إحداها «أن مرداس بن نهيك رجل من أهل فدك أسلم، ولم يسلم من قومه غيره، فذهبت سرية الرسول ﷺ إلى قومه، وأميرهم غالب بن فضالة، فهرب القوم وبقى مرداس لثقته بإسلامه؛ فلما رأى الخيل ألجأ غنمه إلى عاقول[1] من الجبل، فلما تلاحقوا، وكبروا؛ كبّر، ونزل، وقال لا إله إلا الله محمد رسول الله السلام عليكم، فقتله أسامة بن زيد، وساق غنمه، فأخبروا رسول الله ﷺ، فوجد وجداً شديداً، وقال: قتلتموه إرادة ما معه، ثم قرأ الآية على أسامة، فقال أسامة يا رسول الله استغفر لى فقال: كيف وقد تلا لا إله إلا الله، قال أسامة فما زال يعيدها حتى وددت أنى لم أكن أسلمت إلا يومئذ، ثم استغفر لى، وقال: أعتق رقبة».

(وإقام الصلاة) أى الصلاة المعهودة، وهى خمس صلوات فى اليوم والليلة، والمراد بإقامة الصلاة المحافظة عليها فى أوقاتها، واستيفاء شروطها، وأركانها، والصلاة عماد الدين من أقامها أقام الدين ومن هدمها هدم الدين. ومن رحمة الله بعباده أنه شرع لهم صلاة التطوع؛ لتجبر النقص فى الصلوات المكتوبة.

---

(١) عاقول من الجبل منعطف منه جاء فى لسان العرب وعاقول النهر والوادى والرمل ما أعوج منه وكل معطف واد عاقول (عقل).

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة المكتوبة فإن أتمها، وإلا قيل: انظروا هل من تطوع؟ فإن كان له تطوع أكملت الفريضة من تطوعه ثم يفعل بسائر الأعمال المفروضة مثل ذلك».

والمؤمن عندما يدخل الصلاة، يشعر أنه يناجي ربه، فيمتلئ قلبه بالخشوع، ويترك الدنيا وراءه ظهريا، وقد كان بعض سلفنا الصالح يستغرق فى صلاته حتى تقطع بعض أعضائه؛ فلا يحس لها ألماً، ذكر الإمام الرازى فى تفسيره أنه يحكى عن أبى حنيفة أن حية سقطت من السقف، وتفرق الناس، وكان أبو حنيفة فى الصلاة؛ فلم يشعر بها، ووقعت الأكلة فى بعض أعضاء عروة ابن الزبير واحتاجوا إلى قطع ذلك العضو، فلما شرع فى الصلاة قطعوا منه ذلك العضو فلم يشعر عروة بذلك القطع...

ثم قال الإمام الرازى مستدلاً على أن ذلك ليس مستبعداً، قال «ومن استبعد هذا فليقرأ قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ**﴾ [يوسف: ٣١] فإن النسوة لما غلب على قلوبهن جمال يوسف عليه السلام، وصلت تلك الغلبة إلى حيث قطعن

أيديهن وما شعرن بذلك، فإذا جاز هذا فى حق البشر فلأن يجوز عند استيلاء عظمة الله على القلب أولى . . . » .

اللهم اجعلنا من الخاشعين فى صلاتهم، المحافظين عليها .

(وإيتاء الزكاة) أى إعطائها لمستحقيها، وهم المذكورون فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ [التوبة : ٦٠] .

وقد جعل الله الزكاة حقًّا للفقراء والمحتاجين وليست منحة من الأغنياء قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ** ﴾ [المعارج : ٢٥] .

وهى تؤدى إلى التآلف، والمحبة بين الفقراء، والأغنياء، وتنزع الأحقاد والضغائن من المجتمع المسلم، فيعيش الناس فى سلام واطمئنان .

ونسبة الزكاة التى تخرج من مال الأغنياء نسبة قليلة، ربما لا تكفى حاجة المستحقين، وحاجة المجتمع المسلم المتنامية؛ ولذلك ورد أن رسول الله ﷺ قال : « فى المال حق سوى الزكاة » .

واستدل بعض العلماء على مشروعية هذا الحق بقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾[البقرة: ١٧٧].

فقوله تعالى: ﴿ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾ أى المفروضة، وقوله: ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾ يدل على أن فى المال حقًّا سوى الزكاة.

يقول الإمام القرطبى عند تفسير هذه الآية: «قوله تعالى: ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾ استدل به من قال: إن فى المال حقًّا سوى الزكاة، وبها كمال البر، وقيل المراد الزكاة المفروضة، والأول أصح لما خرجه الدارقطنى عن فاطمة بنت قيس قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن في المال حقًّا سوى الزكاة» ثم تلا هذه الآية ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ ﴾ إلى آخر الآية، وأخرجه ابن ماجه في سننه، والترمذى فى جامعه، وقال هذا حديث ليس إسناده بذاك....».

ثم قال الإمام القرطبى: «قلت: والحديث وإن كان فيه

مقال، فقد دل على صحته معنى ما فى الآية نفسها من قوله تعالى: ﴿ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وآتَى الزَّكَاةَ ﴾ فذكر الزكاة مع الصلاة، وذلك دليل على أن المراد بقوله: ﴿ وآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾ ليس الزكاة المفروضة؛ فإن ذلك كان يكون تكرار - والله أعلم -

واتفق العلماء على أنه إذا نزلت بالمسلمين حاجة بعد أداء الزكاة؛ فإنه يجب صرف المال إليها».

(وحج البيت وصوم رمضان) فى هذه الرواية تقديم الحج وتأخير صوم رمضان، وفى رواية أخرى تقديم صوم رمضان جاء فيها: «إن الإسلام بنى على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وحج البيت».

وقد أجاب الإمام النووى عن ذلك فى شرح صحيح مسلم بأنه يحتمل أن ابن عمر سمعه من النبى ﷺ مرتين مرة بتقديم الحج، ومرة بتقديم الصوم فرواه على الوجهين فى وقتين.

(وحج البيت) أى حج بيت الله الحرام بمكة المكرمة، وأداء شعائره من إحرام، وطواف، وسعى بين الصفا والمروة، ووقوف بعرفة وغير ذلك، وهو واجب على المستطيع من المسلمين

لقــول الله تعــالى : ﴿ وَلِلَّه على النَّاسِ حِجُّ الْبَـيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْـهِ سَبِيلاً ﴾ [آل عمران: ٩٧] .

وقد بين رسول الله ﷺ أن الحج يجب على المسلم فى العمر مرة واحدة، فقد روى عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا فقال رجل أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثًا فقال رسول الله ﷺ : لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم...» .

وما زاد على المرة الواحدة يعتبر تطوعًا، وقد رغب فيه رسول الله ﷺ؛ لأنه يكفر الذنوب، وينفى الفقر؛ فقد روى عنه أنه قال: «تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة، وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة».

ولكن حال المسلمين فى وقتنا الحاضر، وفيما يستقبل من الزمان يستدعى النظر فى أمر هذا التطوع، فقد ازداد عددهم ودخل الناس فى دين الله أفواجًا فى كل بقاع الدنيا – وهذا أمل تهفو إليه قلوب المسلمين جميعًا – وقد أدى ذلك إلى كثرة عدد

الحجاج حتى غصت بهم الأماكن المقدسة فى مكة المكرمة وما حولها، وضاقت عليهم شعابها وجبالها.

ولا زلنا نذكر الحادث الأليم الذى وقع خلال موسم الحج فى عام ١٤١٠هـ وراح ضحيته ما يزيد على أربعمائة حاج حينما تدافع الحجاج فى أحد الأنفاق التى شقتها الحكومة السعودية حول مكة، فسقط الضعفاء منهم تحت أقدام الأقوياء - ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم -

من أجل ذلك ارتفعت أصوات المخلصين من علماء المسلمين، ومفكريهم يرجون إخوانهم الذين منّ الله عليهم بأداء فريضة الحج أن يكتفوا بذلك، ويتركوا حج التطوع حتى يفسحوا المجال لإخوانهم الذين يحجون حجة الإسلام، ولا يضيقوا عليهم الأماكن، ويمكنهم أن يتصدقوا بالأموال التى ينفقونها فى حج التطوع فى وجوه البر، والخير، وهى كثيرة، وتلك دعوة مخلصة جديرة بالقبول والتقدير.

(وصوم رمضان) أى الإمساك عن المفطرات بأنواعها فى نهار رمضان، وشهر رمضان شهر مبارك يضاعف الله فيه الثواب لعباده الطائعين، ويجزل لهم العطاء، وقد بين رسول الله منزلة هذا

الشهر حين خطب المسلمين فى آخر يوم من شهر شعبان وقال: «أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم مبارك، شهر فيه يوم خير من ألف شهر. جعل الله صيامه فريضة، وقيام ليله تطوعًا، من تقرب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه، ومن أدى فريضة فيه كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه، وهو شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنة، وشهر المواساة، وشهر يزاد فيه رزق المؤمن، من فطَّر فيه صائمًا كان مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شىء».

وقد ظهر مما سبق أن هذه الأمور التى بنى عليها الإسلام منها ما هو قولى وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ومنها ما هو غير قولى، وهو إما ترك وهو الصوم، أو فعل، وهو إما بدنى وهو الصلاة، أو مالى وهو الزكاة أو مركب منهما وهو الحج.

خاتمة حول الصلاة على النبى ﷺ:

سبق أن أشرت فى صدر الكلام عن الحديث السابق أن جملة ﷺ جملة دعائية، وهذه الجملة نجدها دائمًا مذكورة عقب اسم النبى ﷺ على أى وجه من الوجوه امتثالاً من المؤمنين لأمر الله

تعالى فى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [الأحزاب : ٥٦] .

وقد سأل أحد الصحابة رسول الله ﷺ قائلاً : « أمرنا الله تعالى أن نصلى عليك يا رسول الله فكيف نصلى عليك؟ قال فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله ثم قال رسول الله ﷺ : قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد والسلام كما قد علمتم » .

وهناك روايات أخرى وردت فى صيغة هذه الصلاة .

وحول حكم الصلاة على النبى ﷺ يقول الإمام القرطبى : « ... ولا خلاف فى أن الصلاة عليه فرض فى العمر مرة، وفى كل حين من الواجبات وجوب السنن المؤكدة التى لا يسع تركها ، ولا يغفلها إلا من لا خير فيه » .

ويقول عن حكمها فى الصلاة : « واختلف العلماء فى الصلاة على النبى ﷺ فى الصلاة فالذى عليه الجم الغفير، والجمهور الكثير أن ذلك من سنن الصلاة ومستحباتها، قال ابن المنذر : يستحب ألا يصلى أحد صلاة إلا صلى فيها على

رسول الله ﷺ فإن ترك ذلك تارك فصلاته مجزية فى مذهب مالك، وأهل المدينة وسفيان الثورى، وأهل الكوفة من أصحاب الرأى وغيرهم، وهو قول جل أهل العلم.

وحكى عن مالك وسفيان أنها فى التشهد الأخير مستحبة، وأن تاركها فى التشهد مسيئ، وشذ الشافعى فأوجب على تاركها فى الصلاة الإعادة...».

وقد جمع ابن حجر من كلام العلماء عشرة مذاهب فى حكم الصلاة على النبى ﷺ : **أولها** : أنها من المستحبات، **ثانيها** : أنها واجبة فى الجملة بغير حصر لكن أقل ما يحصل به الإجزاء مرة. **ثالثها** : تجب فى العمر فى صلاة أو فى غيرها، وهى مثل كلمة التوحيد. **رابعها** : تجب فى القعود آخر الصلاة بين قول التشهد،و سلام التحلل. **خامسها** : تجب فى التشهد. **سادسها** : تجب فى الصلاة من غير تعيين محل. **سابعها** : يجب الإكثار منها من غير تقييد بعدد. **ثامنها** : كلما ذكر النبى ﷺ. **تاسعها** : فى كل مجلس مرة ولو تكرر ذكره مراراً. **عاشرها** : فى كل دعاء.

معنى الصلاة على النبى :

ذكر الإمام البخارى أن أبا العالية قال: صلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء.

وأورد ابن حجر عدة أقوال فى معنى الصلاة على النبى:
منها: أن صلاة الله مغفرته، وصلاة الملائكة الاستغفار، **ومنها**: أن صلاة الله الرحمة، وصلاة الملائكة الاستغفار، **ومنها**: أن صلاة الله تعظيمه فمعنى قولنا: اللهم صل على محمد عظم محمداً، والمراد تعظيمه فى الدنيا بإعلاء ذكره، وإظهار دينه، وإبقاء شريعته، وفى الآخرة بإجزال مثوبته، وتشفيعه فى أمته...

وقال ابن حجر إن أولى الأقوال ما تقدم عن أبى العالية من أن معنى صلاة الله على نبيه ثناؤه عليه، وتعظيمه، وصلاة الملائكة، وغيرهم طلب ذلك له من الله تعالى، والمراد طلب الزيادة لا طلب أصل الصلاة.

وفائدة الصلاة من المؤمنين على النبى ﷺ ترجع إليهم، لأن الله يجزل لهم الثواب، فعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من صلى عليَّ واحدة صلى الله عليه عشراً» أى رحمه، وضاعف أجره؛ لقوله تعالى: ﴿**مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**﴾ [الأنعام: ١٦٠]

ومن أجمل ما نقله ابن حجر عن بعضهم فى هذا المعنى أن المقصود من الصلاة على النبى ﷺ التقرب إلى الله بامتثال أمره،

وقضاء حق النبى ﷺ علينا وتبع هذا القائل ابن عبد السلام فقال: ليست صلاتنا على النبى ﷺ شفاعة له، فإن مثلنا لا يشفع لمثله، ولكن الله أمرنا بمكافأة من أحسن إلينا، فإن عجزنا عنها كافأناه بالدعاء، فأرشدنا الله لـمَّا علم عجزنا عن مكافأة نبينا إلى الصلاة عليه، وقال ابن العربى فائدة الصلاة عليه ترجع إلى الذى يصلى عليه لدلالة ذلك على نصوع العقيدة، وخلوص النية، وإظهار المحبة، والمداومة على الطاعة، والاحترام للواسطة الكريمة ﷺ.

ويلاحظ أن الأحاديث شبهت الصلاة على النبى ﷺ وآله بالصلاة على إبراهيم عليه السلام وآله، مع أن المقرر أن المشبه يكون دون المشبه به، والواقع عكسه لأن محمداً (ﷺ) أفضل من إبراهيم ومن آله.

وقد نقل ابن حجر فى فتح البارى عدة أجوبة عن ذلك.

منها: أن النبى ﷺ قال ذلك قبل أن يعلم أنه أفضل من إبراهيم عليه السلام.

ومنها: أنه قال ذلك تواضعًا، وشرع ذلك لأمته؛ ليكتسبوا بذلك الفضيلة.

ومنها : أن التشبيه إنما هو لأصل الصلاة بأصل الصلاة لا للقدر بالقدر، فهو كقوله ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ** ﴾ [البقرة: ١٨٣] ، وهو كقول القائل أحسن إلى ولدك كما أحسنت إلى فلان ويريد بذلك أصل الإحسان لا قدره، ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ** ﴾ [القصص: ٧٧] .

ومنها : أن قوله: اللهم صل على محمد مقطوع عن التشبيه متعلقًا بقوله: وعلى آل محمد... ويكون التقدير اللهم صل على محمد... وصل على آل محمد كما صليت إلى آخره. فيكون التشيه متعلقًا بالجملة الثانية.

ومنها : أن كون المشبه به أرفع من المشبه ليس مطردًا بل قد يكون التشبيه بالمثل وبالدون كما في قوله تعالى: ﴿ **مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ** ﴾ [النور: ٣٥] وأين يقع نور المشكاة من نوره تعالى؟ ولكن لما كان المراد من المشبه به أن يكون شيئًا ظاهرًا واضحًا للسامع حسن تشبيه النور بالمشكاة، وكذا هنا لما كان تعظيم إبراهيم وآل إبراهيم بالصلاة عليهم مشهورًا واضحًا عند جميع الطوائف حسن أن يطلب لمحمد وآل محمد بالصلاة عليهم مثل

ما حصل لإبراهيم وآل إبراهيم، ويؤيد ذلك ختم الطلب المذكور بقوله : «فى العالمين» أى كما أظهرت الصلاة على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين؛ ولهذا لم يقع فى العالمين إلا فى ذكر آل إبراهيم دون ذكر آل محمد .

وذكر ابن حجر أن «الطيبى» عبر عن ذلك بقوله : ليس التشبيه المذكور من باب إلحاق الناقص بالكامل بل من باب إلحاق ما لم يشتهر بما اشتهر .

ولعلك لاحظت أنه جاء فى رواية الحديث التى أوردتها آنفًا (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم . . .)

وجاء فى رواية أخرى للبخارى « . . . كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم » .

وقد عرض لهذه المسألة العلامة ابن حجر فى فتح البارى فذكر أنه قد يطلق آل فلان على فلان نفسه، وعليه وعلى من يضاف إليه جميعًا ثم قال : ويحتمل أن يكون بعض من اقتصر على آل إبراهيم بدون ذكر إبراهيم رواه بالمعنى بناء على دخول إبراهيم فى آل إبراهيم .

ويحسن هنا أن أنبه إلى أن بعض المؤلفين والكاتبين يشيرون إلى الصلاة على النبى ﷺ بالحرف (ص) وهم بذلك يبخلون بالصلاة على النبى (ﷺ) ويحرمون أنفسهم من فضلها وثوابها .

فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « من صلى علىَّ فى كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له ما دام اسمى فى ذلك الكتاب » .

فينبغى ألا نقتدى بهؤلاء المحرومين من فضل الله فى تلك العادة المرذولة . ونصلى على النبى (ﷺ) كلما ذكرناه أو ذكره الذاكرون أو خطت اسمه أيماننا فى كتاب مسطور .

وأما التسليم الذى أمر الله به عباده فى قوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً** ﴾ [الأحزاب : ٥٦] .

فقد حكى الإمام القرطبى عن بعضهم أن الله أمر أصحاب النبى ﷺ أن يسلموا عليه ، وكذلك مَنْ بعدهم أمروا أن يسلموا عليه عند حضورهم قبره ، وعند ذكره ، ومعناه طلب السلامة له من كل سوء ، أو السلام وهو الله على حفظك ورعايتك متول وكفيل به . والبركة فى صيغة الصلاة المذكورة بمعنى الزيادة من الخير والكرامة ، – والله أعلم – .

الحديث الثانى

عن أبى هريرة – رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :

«أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا إنى بما تعملون عليم وقال: يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك»

رواه مسلم

راوى الحديث :

هو أبو هريرة – رضى الله عنه – واسمه عبد الرحمن ابن صخر الدوسى، وقد كنى بهذه الكنية؛ لأنه كان يلعب بهرة صغيرة، فلما رآها رسول الله ﷺ فى كمه قال له : يا أبا هريرة، وهو أكثر الصحابة رواية عن النبى ﷺ، وقد أسلم عام خيبر، وشهدها مع النبى ﷺ ولازمه، وقد عاش حتى ولاه عمر

ابن الخطاب رضى الله عنه على البحرين ثم عزله، وتوفى فى آخر خلافة معاوية ودفن فى البقيع بالمدينة المنورة.

المعنى الإجمالى

هذا الحديث يشتمل على أصل عظيم من أصول الإسلام وتعاليمه، وهو تحرى الحلال فيما يأكله المسلم، وما يشربه، وما يلبسه، وفى أمره كله.

وقد أمر الله رسله الكرام - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - وهم صفوة خلقه - أن يأكلوا من طيبات ما رزقهم الله، ويعملوا صالحًا، وأمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، وفى ذلك تكريم للمؤمنين، ورفع لشأنهم حيث سوى بينهم، وبين المرسلين فى دعوتهم إلى أكل الحلال الطيب، والعمل الصالح.

ثم بين رسول الله ﷺ أن الرجل المسلم قد يطيل السفر فى الطاعات، ويجهد نفسه، ويتعبها، وينبئ مظهره عن تواضع، وزهد فيغتر بهذا المظهر، ثم يرفع يديه إلى السماء يسأل الله من فضله، ويرجو نواله وعطاءه، ولكن الله لا يقبل منه، ولا يستجيب له؛ لأن بطنه ممتلئ بالحرام، وجسمه متدثر بالحرام، ولسانه الذى يدعو به قد غذى بالحرام فكيف يستجيب الله لمثل هذا الإنسان

البعيد من طاعة ربه المنغمس فى الحرام من أخمص قدمه إلى مفرق رأسه!!!؟

من المباحث اللغوية :

(أيها الناس) جاءت هذه العبارة فى رواية مسلم، ولم يذكرها فى الحديث بعض شراح الأربعين النووية، ولعلهم اطلعوا على رواية أخرى له، وإعرابها على النحو الآتى : (أى) منادى مفرد مبنى على الضم، و(ها) زائدة، و(الناس) صفة لأى ويجب رفعه عند جمهور النحاة، ومثلها فى الإعراب (يأيها الرسل . . .) و(يأيها الذين آمنوا . . .) .

(الرجل) يجوز أن يكون منصوبًا على أنه مفعول به للفعل (ذَكَرَ) أى النبى ﷺ – وجملة (يطيل السفر) صفة للرجل، لأنه معرف بأل الجنسية، فيجوز وصفه بالجملة، و(أشعث، أغبر) حالان من فاعل (يطيل) وجملة (يمد يديه) حال ثالثة منه، وقوله (يا رب يا رب) مقول لقول مقدر وقع حالا من فاعل (يمد) أى قائلا : يارب يارب، ويجوز أن يكون (الرجل) مبتدأ خبره جملة (فأنى يستجاب لذلك) .

(وغذى بالحرام) ضبطها الإمام النووى فى شرح صحيح مسلم بضم الغين وتخفيف الذال المكسورة .

ملامح بلاغية :

(يأيها الرسل) ذكر الإمام الرازى فى المقصود من الرسل ثلاثة وجوه : **أحدها** : أنهم رسل الله. **ثانيها** : أنه رسول الله محمد ﷺ ، وذكر على صيغة الجمع كما فى قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ** ... ﴾ أى نعيم بن مسعود، **ثالثها** : أن المراد به عيسى عليه السلام، لأنه كان يأكل من غزل أمه، ثم قال الإمام الرازى : والقول الأول أقرب، لأنه أوفق للفظ الآية.

وعلى الوجهين الأخيرين يكون فى كلمة (الرسل) مجاز مرسل علاقته الكلية حيث أطلق الكل، وأريد الجزء، والمراد بالاستفهام فى قوله : (فأنى يستجاب لذلك) الاستبعاد. وقد أشير إلى الرجل المتصف بالصفات المذكورة باسم الإشارة (ذلك) الذى يشار به إلى البعيد احتقارا له، وازدراء به؛ لأنه بعيد من رضا الله عز وجل، محروم من إجابة دعائه.

شرح وبيان

(أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا) يبدو من سياق هذا الحديث أن الرسول ﷺ يريد أن يحذر الإنسان المسلم من تناول الحرام بشتى صوره وأشكاله، وأن يرغبه فى الحلال حتى

يكون عمله مقبولاً، ودعاؤه مستجابًا، فقدم بين يدى هذا الغرض بقوله: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا» أى إن الله طاهر منزه عن النقائص، والعيوب، فينبغى أن يتخلق المؤمن بأخلاق الله، فلا يصدر عنه إلا الطيب، ولا يقترف إلا الحسن الجميل من الأعمال، والأقوال، قال تعالى: ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا** ﴾ [الكهف: ١١٠] وقال: ﴿ **وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ** ﴾ [الحج: ٢٤] وأن يتحرى إنفاق المال الجيد الحلال، قال تعالى: ﴿ **وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ** ﴾ [البقرة: ٢٦٧] وقال: ﴿ **لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ** ﴾ [آل عمران: ٩٢] وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «من كسب مالاً حرامًا فتصدق به لم يكن له أجر وكان إثمه عليه».

وقدم ﷺ أيضًا بين يدى الغرض السابق بقوله: (وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا...** ﴾ [المؤمنون: ٥١] وقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ** ﴾ [البقرة: ١٧٢]).

فالله سبحانه سوى بين المؤمنين، وبين المرسلين فى أمرهم

جميعًا بالأكل من الطيبات، وفى هذا تكريم للمؤمنين، وحث لهم على الاقتداء بالمرسلين.

(كلوا من الطيبات) يظهر - والله أعلم - من سياق الآية وموضعها فى الحديث أن المراد بالطيبات الحلال، وقد يأتى الطيب بمعنى المستلذ وبمعنى الطاهر، جاء فى لسان العرب: وطعام طيب للذى يستلذ الآكل طعمه،وقد يرد الطيب بمعنى الطاهر، ومنه الحديث أنه قال لعمار رضى الله عنه: مرحبًا بالطيب المطيب أى الطاهر المطهر، ونقل صاحب اللسان عن ابن الأثير قوله: وقد تكرر فى الحديث ذكر الطيب والطيبات، وأكثر ما يرد بمعنى الحلال كما أن الخبيث كناية عن الحرام.

وقال الإمام الرازى: «الطيب فى اللغة قد يكون بمعنى الطاهر والحلال يوصف بأنه طيب؛ لأن الحرام يوصف بأنه خبيث، قال تعالى: ﴿ **قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ** ﴾ [المائدة: ١٠٠] والطيب فى الأصل هو ما يستلذ به، ويستطاب ووصف به الطاهر والحلال على جهة التشبيه؛ لأن النجس تكرهه النفس فلا تستلذه والحرام غير مستلذ؛ لأن الشرع يزجر عنه..» وقد أورد فى معنى الطيبات فى الآية رأيًا مؤداه أنها المطاعم اللذيذة التى يتلذذ الناس بها، ويتفكهون فقال: ولعل أقوامًا ظنوا أن التوسع فى المطاعم،

والاستكثار من طيباتها ممنوع منه، فأباح الله ذلك بقوله كلوا من لذائذ ما أحللناه لكم.

(واعملوا صالحًا) العمل الصالح ما كان موافقًا لما شرعه الله؛ لأن الله لا يعبد ولا يتقرب إليه إلا بما شرع، ولابد أن يكون هذا العمل خالصًا لوجه الله، بعيداً عن الرياء والسمعة؛ لأن الرياء يبطل العمل، ولذلك قال ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله قال الرياء».

وكان الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: اللهم اجعل عملى كله صالحًا واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا.

وقال الفضيل بن عياض فى قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ قال: أخلصه وأصوبه قالوا: ما أخلصه وأصوبه؟ قال: العمل إذا كان خالصًا، ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا، ولم يكن خالصًا، لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة.

فلابد أن يكون مع الإخلاص والنية الصادقة فهم ثاقب، وإتباع لما شرعه الله، وبَيَّنَهُ رسوله (ﷺ) حتى يكون العمل مقبولاً مرضيًا عنه من الله تعالى.

(ثم ذكر) هذا من قول أبى هريرة - رضى الله عنه - وفاعل ذكر ضمير يعود إلى النبى (ﷺ) .

(الرجل) خص الرجل بالذكر؛ لأنه الذى يسافر، ويكابد مشقات السفر غالبًا، وإلا فالمرأة مثله، وهى مكلفة بكل أوامر الإسلام ونواهيه.

(يطيل السفر أشعث أغبر) أى يسافر فى وجوه الطاعات المختلفة كالحج، وطلب العلم، وصلة الرحم، والجهاد فى سبيل الله، ويترك شعره متلبداً غير مرجل، وجسمه متسخًا يعلوه الغبار.

(يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام) أى إنه يدعو الله، ويتضرع إليه، ومأكوله حرام، ومشروبه حرام، وملبوسه حرام.

(وغذى بالحرام) ذكر هذا بعد تقدم المطعوم والمشروب، ليشعر أنه أفرط فى تناول الحرام حتى صار جسمه متشبعًا به، قائمًا عليه.

(فأنى يستجاب لذلك)؟ أى يبعد أن يستجيب الله لذلك الرجل، وهو متلبس بالحرام، وما درى هذا، وأمثاله أن الله لا يقبل الدعاء إلا ممن التزم بآدابه، وأهمها أكل الحلال، فقد روى أن

سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال للنبى ﷺ : ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة فقال له : « يا سعد أطب مطعمك تستجب دعوتك، والذى نفسى بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه أربعين يوماً، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به » .

وإن كنت فى حاجة إلى مزيد من معرفة آداب الدعاء فارجع إلى كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالى [٣ / ٥٤٩ ط الشعب] فقد ذكر فيه كثيراً من هذه الآداب، ولا بأس أن أورد لك بعضاً منها :

أحدها : التضرع، والخشوع، والرغبة، والرهبة قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ** ﴾ [الأنبياء : ٩٠] وقال عز وجل : ﴿ **ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً** ﴾ [الأعراف : ٥٥] .

ثانيها : اغتنام الأوقات الشريفة قال أبو هريرة رضى الله عنه : إن أبواب السماء تفتح عند زحف الصفوف فى سبيل الله، وعند نزول الغيث، وعند إقامة الصلوات المكتوبة فاغتنموا الدعاء فيها، وقال ﷺ : « أقرب ما يكون العبد من ربه عز وجل وهو ساجد فأكثروا فيه من الدعاء » .

ثالثها : أن يجزم الداعى الدعاء، ويوقن بالإجابة قال ﷺ : «لا يقل أحدكم إذا دعا اللهم اغفر لى إن شئت، اللهم ارحمنى إن شئت ليعزم المسألة فإنه لا مكره له».

رابعها : أن يلح فى الدعاء ويكرره ثلاثًا، قال ابن مسعود : كان عليه السلام إذا دعا دعا ثلاثًا وإذا سأل سأل ثلاثًا، وينبغى ألا يستبطئ الإجابة لقوله ﷺ : «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول قد دعوت فلم يستجب لى فإذا دعوت فاسأل الله كثيراً فإنك تدعو كريمًا» .

وفى نهاية الكلام عن هذا الحديث الشريف أحب أن أنبه إلى أن المسلم الذى يدعو الله، وقد التزم آداب الدعاء، قد يستجيب الله دعاءه، ويحقق أمله، وقد تقتضى مصلحته التى يعلمها الله ألا يعجل له دعوته بل يدخرها له فى الآخرة، أو يكف عنه من الأذى، والسوء بمثلها قال ﷺ : «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخر له، وإما أن يكف عنه من السوء بمثلها».

* * *

الحديث الثالث

عن أنس – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار**». رواه البخارى ومسلم

راوى الحديث :

روى هذا الحديث عن رسول الله ﷺ الصحابى الجليل أنس ابن مالك – رضى الله عنه – وهو أنصارى من أهل المدينة المنورة جاءت به أمه أم سليم إلى النبى ﷺ بعد هجرته إلى المدينة، وعمره عشر سنين فقالت: يا رسول الله هذا أنيس ابنى أتيتك به يخدمك فادع الله له، فقال: «اللهم أكثر ماله، وولده، وبارك له فيه»، وبقى خادمًا للنبى ﷺ حتى لقى ربه، وهو راض عنه.

وقد استجاب الله دعاء النبى ﷺ لأنس، فكثر ماله، وأولاده، وبورك له فى ماله حتى إنه كان له بستان فى البصرة يثمر فى العام مرتين.

توفى – رضى الله عنه – فى العام الثالث والتسعين من الهجرة بالبصرة وهو آخر من مات بها من الأنصار.

المعنى الإجمالى

فى هذا الحديث يبين رسول الله ﷺ أن المؤمنين حقًّا هم الذين ملأ الإيمان قلوبهم، وانشرحت له صدورهم، وتغلغل فى نفوسهم، وخالط لحومهم ودماءهم، فآثروا حب الله، وحب رسوله ﷺ على الدنيا كلها، بل آثروه على أنفسهم وأولادهم وكل عزيز لديهم، وقد أطاعوا الله ورسوله، واتبعوا تعاليم الإسلام الذى ارتضاه الله لهم دينًا.

وبين ﷺ أن المؤمنين يتحابون فى الله عز وجل من غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، وقد تساموا بأنفسهم عن محبة الناس من أجل أغراض دنيوية حقيرة، وأهداف أرضية وضيعة، لا تلبث أن تزول بزوال أسبابها، فلا يحبون غنيًّا من أجل غناه، وطمعًا فى عطائه ونداه، ولا يتقربون إلى صاحب جاه، يرجون نفعه، ويؤملون الخير منه، لأنهم يعلمون علم اليقين أن الذي بيده الخير والنفع هو الله وحده. كذلك يبين رسول الله ﷺ فى هذا الحديث أن المؤمنين الصادقين يتمسكون بإيمانهم، ويعضون عليه بالنواجذ ويبغضون الكفر، ويفرون منه فرارهم من النار.

من المباحث اللغوية :

(ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان) كلمة (ثلاث) مبتدأ، وسوغ الابتداء بها مع كونها نكرة وجود التنوين بها، لأنه عوض عن المضاف إليه، فكأنه قيل ثلاث خصال، وخبر هذا المبتدأ جملة (من كن فيه وجد حلاوة الإيمان) وهى جملة شرطية. والفعل (وَجَد) بمعنى أصاب فيكتفى بمفعول واحد، وهو (حلاوة الإيمان) .

(أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما) أفرد الضمير فى أحب، لأنه اسم تفضيل اتصل بمن فى (مما) واسم التفضيل منصوب لأنه خبر (يكون) .

(وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله) تكلم صاحب (لسان العرب) عن كلمة (المرء) فذكر أن معناها الإنسان، والقياس فيها أن تكون مفتوحة الميم ساكنة الراء. فيقال - مثلاً - هذا مَرْءٌ، ورأيت مَرْءاً، ونظرت إلى مَرْءٍ.

وذكر أن بعضهم يضم الميم فى حالة الرفع، ويفتحها فى حالة النصب، ويكسرها فى حالة الجر، فتكون الميم فى أول الكلمة تابعة للهمزة فى آخرها فإذا دخلت عليها همزة الوصل

(امرؤ) تبعت الراءُ الهمزة فى حركاتها، فتكون الراء مضمومة فى حالة الرفع، مفتوحة فى حالة النصب ، مكسورة فى حالة الجر، تقول قال امرؤُ القيس: قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل.... إلخ.

(وأن يكره أن يعود فى الكفر...) عدى الفعل (يعود) بالحرف (فى) لأنه ضمن معنى يستقر، ويصح أن تكون (فى) بمعنى إلى كما فى قوله تعالى: ﴿ **قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا...** ﴾ [الأعراف: ٨٨] .

أى لتصيرن إلى ملتنا.

من الملامح البلاغية :

(... حلاوة الإيمان) فى كلمة الإيمان استعارة بالكناية، شبه فيها الإيمان بالعسل، أو ما أشبهه، وحذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الحلاوة، وإثبات الحلاوة للإيمان تخييل.

(وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار) فى هذه العبارة شبهت كراهة العودة فى الكفر، بكراهة

القـذف فى النار لما فـيـه من الهـلاك المحـقق، بأداة هى الكاف فى (كما).

شرح وبيان

(ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان) أى ثلاث خصال من وجدت فيه، وجد حلاوة الإيمان.

وقد تكلم العلماء عن معنى حلاوة الإيمان، فنقل الإمام النووى عن بعضهم أن معناها استلذاذ الطاعات، وتحمل المشقات، فى رضا الله - عز وجل - ورسوله ﷺ وإيثار ذلك على عَرَض الدنيا، وعن بعضهم أن حلاوة الإيمان هى التى يعبر عنها بالذوق لما يحصل به من لذة القلب، ونعيمه، وسروره ، وغذائه، وهى شىء محسوس يجده أهل الإيمان فى قلوبهم. ووجود هذه الحلاوة يتبع الخصال الثلاث، فمن أحب شيئًا واشتهاه إذا حصل له مراده، فإنه يجد الحلاوة، واللذة، والسرور بذلك.

(أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما) قال البيضاوى : المراد بالحب هنا الحب العقلى الذى هو إيثار ما يقتضى العقل السليم رجحانه، وإن كان على خلاف هوى النفس كالمريض يعاف الدواء بطبعه فينفر عنه، ويميل إليه بمقتضى عقله،

فيهوى تناوله، فإذا تأمل المرء أن الشارع لا يأمر، ولا ينهى، إلا بما فيه صلاح عاجل، أو خلاص آجل، والعقل يقتضى رجحان جانب ذلك تمرن على الائتمار بأمره بحيث يصير هواه تبعًا له، ويلتذ بذلك التذاذًا عقليًّا، إذ الالتذاذ العقلى إدراك ما هو كمال وخير من حيث هو كذلك.

ومحبة العبد لله تحصل بفعل طاعته، وترك مخالفته، وكذلك الرسول ﷺ؛ لأن المحب لمن يحب مطيع، جاء فى بعض كتب الأدب أن هارون الرشيد دخل على بعض النُّسَّاك فسلم عليه فقال: وعليك السلام أيها الملك أتحب الله قال: نعم. قال: فتعصيه، قال: نعم. قال: كذبت والله فى حبك إياه؛ إنك لو أحببته، لما عصيته، ثم أنشد يقول:

تعصى الإله وأنت تظهر حبه　　هذا لعمرى فى الفعال بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته　　إن المحب لمن يحب مطيع
فى كل يوم يَبْتَدِيك بنعمة　　منه وأنت لشكر ذاك مُضِيعُ

ولا يتحقق الإيمان إلا بحب رسول الله ﷺ، وإيثاره على كل غال ونفيس، وصدق الله: ﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ**

وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ...﴾ [التوبة: ٢٤]

وقال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده، ووالده، والناس أجمعين»(١).

قال القاضي عياض: ومن محبته ﷺ نصرة سنته والذَّبُّ عن شريعته، وتمنى حضور حياته، فيبذل ماله ونفسه دونه، وجاء فى صحيح البخارى عن عبد الله بن هشام قال: «كنا مع النبى ﷺ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب. فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحب إلىّ من كل شىء إلا من نفسى، فقال النبى ﷺ: «لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك» فقال له عمر: فإنه الآن والله، لأنت أحب إلىّ من نفسى، فقال النبى ﷺ: الآن يا عمر» أى الآن عرفت فنطقت بما يجب(٢).

وقد ضرب المسلمون الأوائل أروع الأمثلة فى حب

---

(١) مسلم بشرح النووى ١/٢١٩.
(٢) فتح البارى ١١/٥٣٢ - ٥٣٦.

رسول الله ﷺ، والدفاع عنه، فقد روى أن امرأة استشهد أبوها، وأخوها، وزوجها يوم أحد، فلما نُعوا إليها، سألت ما فعل رسول الله؟ قيل لها: إنه بخير والحمد لله، فسألتهم أن يدلوها عليه لتنظر إليه فلما رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل. أى صغيرة.

وعندما وقع رسول الله ﷺ فى حفرة يوم أحد عملها المشركون؛ ليقع فيها المسلمون، وهم لا يعلمون كان الصحابة رضوان الله عليهم يدافعون عن رسول الله، ويحمونه بأجسامهم، حتى إن (أبو دجانة) رضى الله عنه كان ينحنى عليه، والنبل يقع فى ظهره. وأكثر من ذلك كانوا يقاتلون دون رسول الله ﷺ ثم يقتلون دونه - رضوان الله عليهم أجمعين -

(... مما سواهما) المراد بما سوى الله، ورسوله ﷺ كل ما يحبه الإنسان كالولد، والزوجة، والأهل، والأصدقاء، وغيرهم، ومثلهم أيضًا ما يمتلكه الإنسان، وتتعلق به نفسه من أموال، وضياع، وقصور شوامخ، ونحو ذلك؛ ولهذا أوثرت (ما) فى (مما سواهما) على (مَنْ) لتعم محبوبات الإنسان ممن يعقل، وما لا يعقل، وضمير المثنى فى (سواهما) عائد إلى الله عز وجل، وإلى رسوله ﷺ.

وهذا يشعر أن الجمع بينهما في ضمير واحد لا محظور فيه، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا أنكر رسول الله ﷺ على الخطيب الذي جمع بينهما في قوله: «من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى» وقال له: بئس الخطيب أنت؟ أجاب العلماء عن ذلك بعدة أجوبة:

أحدها : أن من شأن الخطابة إيضاح الكلام وبسطه، والإطناب فيه؛ لإفهام المعاني، وتقريرها في نفوس السامعين، أما الحديث النبوي، فشأنه الإيجاز؛ ليسهل حفظه، ويتيسر انتقاله بين المسلمين.

ثانيها : أن الجمع بينهما عندما يصدر عن رسول الله ﷺ لا يوهم نقصاً في جانب الله تعالى؛ لأن منصبه لا يتطرق إليه ذلك الإيهام، أما غيره إذا جمع بينهما، فإنه يوهم النقص في جانبه تعالى، والتسوية بينه وبين رسوله.

ثالثها : أن تثنية الضمير في الحديث (مما سواهما) للإيماء إلى أن المعتبر هو المجموع المركب من محبة الله، ومحبة رسوله معاً؛ فلا تكفي إحداهما عن الأخرى، فمن يدّعي حب الله، ولا يحب رسوله لا ينفعه ذلك، أما جمع الضمير في قول الخطيب (ومن يعصهما فقد غوى) فإنه يوهم أن المعصية لا تضر صاحبها إلا إذا

كانت معصية لله ورسوله معًا، والواقع أن معصية أحدهما تؤدى إلى الغواية وتورد صاحبها موارد الهلكة[1].

(وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله) أى وأن يحب المؤمن أخاه لا يحبه إلا لله وابتغاء وجهه الكريم، والحب في الله ثمرة من ثمرات حب الله؛ لأن من يحب الله تعالى، يخلص عمله له، ولا يجعل لغير الله من عمله شيئًا، وتلك منزلة عظيمة لا يرقى إليها إلا أصحاب النفوس الكبيرة، الذين نبذوا الأغراض الدنيا وراءهم ظهريًّا، واتخذوا صالح الأعمال غاية وهدفًا ولذلك أحبهم الله، وأجزل لهم الثواب والعطاء.

فعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أن رجلاً زار أخًا له فى قرية أخرى فأرصد الله له على مدرجته مَلَكًا، فلما أتى عليه، قال : أين تريد؟ قال : أريد أخًا لى فى هذه القرية، قال : هل لك عليه من نعمة تَرُبُّهَا؟ قال : لا غير أنى أحببته فى الله عز وجل، قال : فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه.

ومعنى تربّها أى تقوم بإصلاحها، وتنهض إليه بسبب ذلك[2].

---

(١) ينظر فتح البارى ١ / ٧٩ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ٥ / ٤٣١ .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: إن من عباد الله لأناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله عز وجل، فقال رجل: مَنْ هُمْ، وما أعمالهم، لعلنا نحبهم؟ قال: قوم يتحابون بروح الله عز وجل من غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها بينهم، والله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، ثم قرأ ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [يونس: ٦٢] .

وقد عرف الصحابة - رضوان الله عليهم - تلك المنزلة العالية التى يتسنمها المتحابون فى الله، وهذا الثواب العظيم الذى أعده الله لهم فسجلوا أروع الصفحات فى تاريخ الحب والإيثار.

ومما روى فى ذلك أن المهاجرين لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبدالرحمن بن عوف، وسعد بن الربيع رضى الله عنهما فقال سعد لعبد الرحمن: إنى أكثر الأنصار مالا فأقسم مالى بينى وبينك شَطْرَيْن ولى امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسَمّها لى أطلقها، فإذا انقضت عدتها، فتزوجها فقال له عبدالرحمن: بارك الله لك فى أهلك ومالك أين سوقكم؟ فدلوه

على السوق فتاجر، وربح كثيراً وتزوج، وصار من أغنياء الصحابة، ولذلك مدح الله الأنصار وسجل لهم هذه العاطفة المشبوبة، والمحبة الصادقة لإخوانهم المهاجرين فقال: ﴿ **وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ﴾

[الحشر: ٩]

وقد روى في سبب نزول هذه الآية «أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فبعث إلى نسائه، فقلن ما معنا إلا الماء، فقال رسول الله ﷺ من يَضُمُّ - أو يضيف - هذا؟ فقال رجل من الأنصار: أنا فانطلق به إلى امرأته فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ، فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني، فقال: هيئي طعامك، وأصبحي سراجك، ونومي صبيانك إذا أرادوا عشاء، فهيأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها، فأطفأته، فجعلا يريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين. فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال: ضحك الله الليلة - أو عجب - من فعالكما فأنزل الله ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ** ﴾(١).

---

(١) فتح البارى ٧/١٤٩.

هل رأيت إيثاراً أفضل من هذا!؟

رجل فقير لا يملك إلا عشاء أولاده الصغار، يحتال عليهم هو وزوجته الفاضلة فينوّماهم وهم جياع، وتتظاهر المرأة بإصلاح السراج فتطفئه، ويوهمان الضيف فى الظلام أنهما يأكلان معه وما مدّا إلى الزاد كفا، ثم يبيتان على الطوى!! ألا قاتل الله البخلاء.

ولو ذهبنا فى هذه الأيام نفتش عن الحب فى الله بين الناس، لوجدناه نادراً؛ فأكثرهم يتحببون من أجل الأغراض الدنيوية، والأهداف المادية الصّرفة؛ فتجد من يتحبب إلى غنى من أجل غناه، طمعًا فى الإفادة منه، وتجد من يتحبب إلى صاحب منصب رفيع رجاء نفع مرتقب، أو فائدة مأمولة... فإذا افتقر الغنى، وزال المنصب... انفض الناس من حولهم، وقلبوا لهم ظهر المجن، وربما صاروا لهم أعداء، وصدق القائل:

المرء فى زمن الإقبال كالشجرة
والناس من حولها ما دامت الثمرة
حتى إذا راح عنها حملها انصرفوا
وتركوها تقاسى الحرَّ والغبرة

والقائل :

إن قلَّ مـــالى فـــلا خلّ يصـــاحـــبنى
إن زاد مـــالى فكـلُّ الـناس خـــلانـى
فكم عـــدو لأجل المال صـــاحـــبنى
وكم صـــديق لفـــقـــد المال عـــادانى

ولن يتعرض الحب فى الله لهذا التغيير، وذلك الزوال؛ لأنه حب شريف يتمسك بالعروة الوثقى، والغايات النبيلة، من أجل ذلك سيبقى هذا الحب وشيجة قوية بين المتحابين فى جلال الله فى الدنيا، والآخرة، فما كان لله دام واتصل، وما كان لغيره انبت وانقطع قال الله تعالى : ﴿ **الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [الزخرف : ٦٧] .

(وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار) أى ويكره العودة إلى الكفر مثل كراهته أن يقذف به فى النار، وفى بعض الروايات (بعد أن أنقذه الله منه) أو (بعد إذ أنقذه الله منه) .

وهذا يشمل المؤمنين الذين دخلوا فى الإسلام بعد أن كانوا كفاراً، مثل كثير من صحابة رسول الله ﷺ، والذين دخلوا،

ويدخلون الإسلام بعد ذلك إلى يوم القيامة مثل اليابانيين، والإفريقيين، والأوربيين وغيرهم الذين يعلنون إسلامهم، وتتناقل الصحف والإذاعات أخبار إسلامهم فى كثير من الأوقات، ويشمل الذين ولدوا على الإسلام، واستمروا عليه؛ لأن الله ثبتهم على الإسلام، وعصمهم من الكفر، والضلال، ويكون معنى عودة هؤلاء الأخيرين إلى الكفر صيرورتهم إليهم.

قال ابن حجر فى فتح البارى: «والإنقاذ أعم من أن يكون بالعصمة منه ابتداء بأن يولد على الإسلام، ويستمر، أو بالإخراج من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان كما وقع لكثير من الصحابة، وعلى الأول فيحمل قوله يعود على معنى الصيرورة بخلاف الثانى فإن العود فيه على ظاهره»[1].

وقال الإمام النووى فى شرح صحيح مسلم: « ... وأما قوله ﷺ (يعود) أو (يرجع) [كما فى بعض الروايات] فمعناه يصير، وقد جاء العود والرجوع بمعنى الصيرورة»[2].

والمؤمن إذا تمكن الإيمان من قلبه، واستقر فى نفسه، لن

---

(١) فتح البارى ١ / ٧٩.

(٢) شرح صحيح مسلم للإمام النووى ١ / ٢١٨.

يتزحزح عنه قيد شعرة، ولو حُرِّق بالنار، أو قطع جسمه بأمضى آلات التقطيع، لأنه يؤمن أن له حياة دائمة باقية فى الدار الآخرة.

ولعلك تذكر أيها القارئ أن المشركين فى مبدأ الدعوة كانوا يصبّون العذاب صبًّا على ضعاف المسلمين؛ ليردوهم عن دينهم فما استطاعوا، وباءوا بالفشل، والخسران المبين، وكان حالهم كما قال القائل:

كناطحٍ صخرةً يوما لِيُوهنها فلم يَضِرْها وأوهى قرنَه الوَعِلُ

فكان أمية بن خلف يُخرج بلالا - رضى الله عنه - إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى وهو يقول فى ذلك البلاء أحد، أحد.

وربط المشركون سُميّة أم عمار بن ياسر بين بعيرين وطعنوها بحربة فى موضع عفتها فقتلت، وقتل زوجها ياسر، ولم يرجعا عن الإسلام كما أراد المشركون، وهما أول شهيدين فى الإسلام.

وهذا شأن المؤمنين فى كل زمان ومكان، يتعرضون لصنوف العذاب، وأبشع أنواع القتل مما يصرفهم ذلك عن دينهم.

روى خبّاب بن الأرتّ رضى الله عنه قال: شكونا إلى

رسول الله ﷺ وهو متوسد بُرْدَةً له في ظل الكعبة فقلت : ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا؟ فقال :

« قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها فيجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يصدّه ذلك عن دينه، والله ليتمنّ هذا الأمرُ حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون »[1].

فقد أراد (ﷺ) أن يعطى خبّابًا، ومن معه درسًا في الجَلَد والثبات، وشحنة جديدة من الإيمان، والصبر، والاحتمال، فذكر له ما كان يلاقيه المؤمنون في الأمم السابقة من الظلم الفادح ﴿ **فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا** ﴾ [آل عمران : ١٤٦]

ويظهر أن هذا الدرس كان في أيام الدعوة الأولى، وقد وعاه (خبّاب) وإخوانه فصبروا وصابروا حتى نصرهم الله على عدوهم فأصبحوا ظاهرين.

– اللهم ثبتنا على الإيمان ، وتوفنا مسلمين –

---

(١) فتح البارى ٦ / ٧١٦ وينظر تفسير القرطبى ص ٣٨٠٤ ط الشعب.

الحديث الرابع

عن المعرور بن سويد قال: لقيت أبا ذر بالرَّبَذَة وعليه حُلَّة وعلى غلامه حلة فسألته عن ذلك فقال: إنى ساببت رجلاً فعيرته بأمه فقال لى النبى ﷺ: «يا أبا ذر أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم». رواه البخارى ومسلم

راوى الحديث :

روى هذا الحديث عن رسول الله ﷺ أبو ذرّ الغفارى رضى الله عنه، واسمه جُنْدُب بن جنادة، وهو من السابقين إلى الإسلام، أعلن إسلامه بين يدى رسول الله ﷺ فى الأيام الأولى من عمر الدعوة الإسلامية، وتحدى قريشاً، فجهر بالشهادتين داخل المسجد الحرام، فثارت ثائرة المشركين، وضربوه ضربًا مبرحًا حتى سقط على الأرض، ولم ينقذه منهم إلا العباس عم النبى ﷺ الذى هددهم بانتقام قبيلة غفار منهم قائلاً لهم:

يا معشر قريش أنتم تجار، وطريقكم على غفار، وهذا رجل من رجالها إن يحرض قومه عليكم، يقطعوا على قوافلكم الطريق.

عاش - رضى الله عنه-، زاهداً فى الدنيا، داعيًا إلى دين الله، يحارب إسراف الأغنياء وترفهم، وإنفاقهم الأموال فى المظاهر الدنيوية الكاذبة.

توفى رضى الله عنه سنة إحدى وثلاثين أو اثنتين وثلاثين بالربذة قرب المدينة المنورة، ودفن بها.

المعنى الإجمالى

هذا الحديث درس من الدروس النبوية الرائعة التى ترشد المسلمين إلى طريق الخير والرشاد، وتأخذ بأيديهم إلى مواطن العزة، والقوة، والنصر، والغلبة، بَيّن فيه رسول الله ﷺ أن المسلمين إخوة يربط بينهم الإسلام برباط وثيق، لا فرق بين غنيهم وفقيرهم، ولا بين خادمهم ومخدومهم، ولا بين سيدهم ومسودهم، كل يؤدى دوره فى هذه الحياة كما أراده الله له، فهم يتكاملون، ويتعاونون، ويتساندون انقياداً لحكمة الله البالغة ﴿ ... **نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ**

فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

فلا ينبغي أن يتعالى غني بغناه، ولا يتجبر قوي بقوته، أو يدل صاحب سلطان بسلطانه، ولا يليق بمسلم أن يجرح شعور أخيه المسلم بكلمة نابية، أو يعيره بلونه، أو فقره، أو مرضه، أو عمله المتواضع، ما دام هذا العمل شريفًا، فقيمة الناس عند الله ليست بمظاهر الحياة الدنيا، ولكنها بالعمل الصالح، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وجدير بالمسلمين أن يكونوا متراحمين، يعطف غنيهم على فقيرهم، ويساعد قويهم ضعيفهم، ويبذل صاحب الفضل منهم فضله في وجوه البر، والخير، ويرؤف صاحب العمل منهم بمن يعملون تحت يده، فلا يكلفهم من الأعمال ما يرهقهم، ويثقل كاهلهم، وإن كلفهم بعمل يشق عليهم، عاونهم على أدائه، وساعدهم على إتمامه.

من المباحث اللغوية:

(الحُلّة) لباس من ثوبين. (سابيت رجلاً) شاتمت – والتساب – التشاتم، والسَّبُّ – مصدر سبَّه يسبُّه.

(فعيرته بأمه) عيرته أى عبته، وتعاير القوم عير بعضهم بعضاً.

(... فيك جاهلية) جاء فى لسان العرب أن الجاهلية هى الحال التى كان عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله ورسوله وشرائع الدين، والمفاخرة بالأنساب والكبر والتجبر وغير ذلك.

والجاهلية مأخوذة من الجهل أى الطيش والحمق كما فى قول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا

(إخوانكم خولكم) الخول ما أعطى الله الإنسان من العبيد والخدم، ويطلق هذا اللفظ على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، يقال : هؤلاء خول فلان.... أو الواحد خائل، وسموا بذلك لأنهم يتخولون الأمور أى يصلحونها.

(وليلبسه مما يلبس) الفعل (يلبس) مفتوح الباء، وماضيه مكسورها، (لَبِسَ يلبَس) ومصدره اللُّبْس... أى لبس ثوبًا ونحوه قال تعالى : ﴿ **وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ...** ﴾ [الكهف : ٣٠] .

أما يلبس بكسر الباء فى المضارع وفتحها فى الماضى (لَبَس يَلْبِس) فمعناه خلط يقال لَبَس عليه الأمر أى خلطه قال تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام : ٩]

ملامح بلاغية :

الاستفهام فى قوله ﷺ (أعيرته بأمه؟) استفهام إنكارى توبيخى أى ما كان ينبغى لك أن تعيره بأمه .

(. .إنك امرؤ فيك جاهلية) التنكير فى جاهلية للتقليل أى فيك خصلة واحدة من خصال الجاهلية، أو بقية قليلة من خلالها .

وقد تقدم المسند على المسند إليه فى قوله : (إخوانكم خولكم) للاهتمام بشأن الأخوة، وواضح أن المقصود هو الحكم على خولكم بالأخوة .

وقوله : (جعلهم الله تحت أيديكم) يمكن أن يكون كناية عن القدرة، أو السيطرة أو الملك، ويمكن اعتباره استعارة تمثيلية استعيرت فيها صورة الشىء يضعه الإنسان تحت يده ويتمكن

منه، ويسيطر عليه لصورة هؤلاء الخدم أو العبيد، وهم تحت تصرفه، وطوع إشارته.

شرح وبيان

(ساببت رجلاً) صيغة سابيت تشعر أن السباب لم يكن من طرف واحد، بل كان متبادلاً بين هذا الرجل وبين أبي ذر - رضى الله عنه - فلما اشتد غضبُ أبي ذر عير هذا الرجل بأمه، ويؤيد ذلك ما جاء في رواية مسلم عن المعرور بن سويد قال: مررنا بأبي ذر بالرَّبَذَة وعليه بُرْدٌ وعلى غلامه مثله فقلنا يا أبا ذر لو جمعت بينهما كانت حُلة، فقال: إنه كان بيني وبين رجل من إخواني كلام، وكانت أمه أعجمية فعيرته بأمه، فشكاني إلى النبي ﷺ فلقيت النبي ﷺ فقال: يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية قلت يا رسول الله من سبّ الرجال سبوا أباه وأمه قال يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فأطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم[1].

(فعيرته بأمه) أي نسبته إلى العار، وفي رواية أخرى

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٤ / ٢١٢.

(فقلت له يا ابن السوداء) (فقال لى النبى ﷺ يا أبا ذر أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية) فى هذه الرواية التى معنا اختصار لأن النبى ﷺ لم يقل له شيئًا إلا بعد أن شكاه الرجل إليه كما بينت ذلك رواية مسلم التى أسلفت.

وقد أنكر النبى ﷺ على أبى ذر أن يعير هذا الرجل بأمه، ويجرح شعوره، وينتقص من قدره، ويزرى بنسبه، لأن هذا لا يليق بالمسلمين ولا سيما كبار الصحابة.

وكان الأجدر به أن يترفع عن سب هذا الرجل ويعفو ويصفح، ويبدو أن أبا ذر رضى الله عنه، وهو بشر ليس معصومًا من الخطأ قد سيطرت عليه ثورة الغضب فلم يتمالك نفسه وسب هذا الرجل.

وقد اعتذر العلامة ابن حجر فى فتح البارى عن أبى ذر فقال: «ويظهر لى أن ذلك كان من أبى ذر قبل أن يعرف تحريمه، فكانت تلك الخصلة من خصال الجاهلية باقية عنده... وكان بعد ذلك يساوى غلامه فى الملبوس وغيره أخذًا بالأحوط، وإن كان لفظ الحديث يقتضى المواساة لا المساواة»[1].

---

(١) فتح البارى ١/ ١٠٨، ١٠٩.

ولا شك أن رسول الله ﷺ الذى لا ينطق عن الهوى يصدر فى هذه الآداب الرفيعة عن تعاليم القرآن الكريم، وقد نهى الله تعالى المؤمنين عن التنابز بالألقاب فقال: ﴿ ... **وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ** ... ﴾ [الحجرات: ١١] .

أى لا يلقب بعضكم بعضًا بألقاب السوء التى تلحق بالمؤمنين ذمًّا، أو عيبًا، ويجد المؤمن منها فى نفسه.

وقد ذكر صاحب الكشاف أن هذه الآية نزلت فى ثابت ابن قيس، وكان به وَقْرٌ أى صَمَم، وكانوا يوسعون له فى مجلس رسول الله ﷺ ليسمع فأتى يومًا وهو يقول: تفسحوا لى حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ، فقال لرجل تنح فلم يفعل، فقال من هذا؟ فقال الرجل أنا فلان، فقال بل أنت ابن فلانة يريد ما كان يعير بها فى الجاهلية، فخجل الرجل فنزلت الآية فقال ثابت لا أفخر على أحد فى الحسب بعدها أبدًا(١) .

وقد حكى القرطبى عن بعضهم أن الرجل كان يعير بعد إسلامه بكفره، فيقال له: يا يهودى يا نصرانى فنزلت الآية.

وقد ذكرنى ما حكاه (القرطبى) بما كانت تفعله وسائل

---

(١) الكشاف ٤ / ١٤.

الإعلام العراقية إبّان حربها مع إيران، فقد كانت تردد أنهم يحاربون الفرس عبّاد النار!!

ومعلوم أن الإيرانيين الحاليين مسلمون دخل أجدادهم الإسلام منذ مئات السنين والإسلام يهدم ما قبله، ويهدم العصبيات العرقية المقيتة. وهذه جاهلية حديثة تأبى إلا أن تطل برأسها فى القرن الخامس عشر من هجرة النبى ﷺ، يعير فيها مسلمون بكفر أسلافهم وعبادتهم النار.

وقد قيل إن هذا الرجل المسبوب هو بلال مؤذن رسول الله ﷺ ويظهر أن هذا قول ضعيف لا يعتد به؛ لأن ابن حجر أورده بصيغة التمريض (قيل)[١].

والذى يدل عليه سياق الحديث أن هذا الرجل كان عبداً مملوكًا.

(إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم) أى أن هؤلاء الخدم أو العبيد إخوان فى الدين ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]

---

(١) فتح البارى ١/ ١٠٨.

فينبغى الرفق بهم ومعاملتهم معاملة حسنة كريمة.

قال ابن حجر.. ويكون العبد الكافر بطريق التبع، ويؤخذ من ذلك أن العبد ولو كان كافرًا، ينبغى معاملته معاملة طيبة؛ لأنه أخ في الإنسانية، وللمسلمين في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة، فقد كان يعامل المخالفين في الدين بما يليق به من المعاملة الكريمة، وكثيرًا ما كانت هذه المعاملة سببًا في إسلام هؤلاء المخالفين.

وقد قرأت في مجلة التضامن الإسلامى التى تصدر بالسعودية عدد ذى الحجة ١٤٠٨هـ أن هناك جماعة من العمال الكوريين غير مسلمين استقدمهم أحد رجال الأعمال السعوديين، فعملوا لديه فترة من الزمن ثم أراد ترحيلهم إلى بلادهم، دون أن يعطيهم أجورهم، فشكوه إلى المحكمة الشرعية بجدّة، فقضت بوقف ترحيلهم حتى تسلم إليهم أجورهم، فلما رأوا هذه العدالة الشرعية في الحكم الإسلامى، أخذتهم الروعة، ولم يغادروا المحكمة حتى أعلنوا إسلامهم ذاكرين أنهم يفتقدون مثل هذه العدالة الإسلامية في بلادهم!!

فهؤلاء العمال وإن افتقدوا المعاملة الحسنة من صاحب

العمل إلا أنهم رأوا عدالة الإسلام، وإنصافه، فامتلأت قلوبهم بحب هذا الدين، ودخلوا فيه فرحين مسرورين.

(.. فمن كان أخوه تحت يديه فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس) من فى (مما) فى الموضعين للتبعيض أى من جنس ما يأكله، ويلبسه.

وقد ذكر الإمام النووى فى شرح صحيح مسلم أن الأمر بإطعامهم، وإلباسهم محمول على الاستحباب لا على الإيجاب، والأمر فى هذا راجع إلى عرف البلدان والأشخاص، ومن أطعمهم مثل مطعومه، وألبسهم مثل ملبوسه، فقد فعل الأكمل والأفضل، وأجره على الله.

(ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم) أى لا تكلفوهم أعمالاً شاقة لا يطيقونها ولا يستطيعون أداءها، فإن طلبتم منهم مثل هذه الأعمال التى تغلبهم، وتثقل كاهلهم، وتعجز قدرتهم عنها، فأعينوهم، وقدموا لهم المساعدة.

وفى هذا الحديث دعوة إسلامية رائدة إلى المحافظة على حقوق العمال، والرفق بهم، ومعاملتهم معاملة حسنة كريمة، ونبذ للتفرقة بين الناس بسبب لونهم، أو عملهم، أو وضعهم الاجتماعى، فكلهم لآدم وآدم من تراب.

الحديث الخامس

عن عطاء بن يسار قال لقيت عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قلت : أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة قال : أَجَلْ والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ويُفتحُ بها أعين عمى وآذان صم وقلوب غلف .(رواه البخارى)

راوى الحديث :

هو عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل القرشى، ووالده عمرو بن العاص فاتح مصر – رضى الله عنهما – أسلم عبد الله فى السنة السابعة من الهجرة وهو فى الرابعة عشرة من عمره، وكان شابًّا تقيًّا سباقًا إلى طاعة الله، وعبادته، فقد روى أنه عندما تزوج ذهب أبوه يسأل زوجه عن حاله معها فقالت فى أدب رفيع : نعم

الرجل عبد الله لم يطأ لنا فراشًا منذ جئناه ـ لأنه كان مشغولاً بالصيام وقيام الليل.

فشكا عمرو ابنه إلى رسول الله ﷺ فقال له ﷺ: «ألم أخبرك أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟ فقال: بلى يا رسول الله فقال له: إن لزوجك عليك حقًا، ولزورك عليك حقًا، ولجسدك عليك حقًا، وصم صوم داود نبى الله؛ فإنه كان أعبد الناس فقد كان يصوم يومًا، ويفطر يومًا».

وجاء فى صحيح مسلم أن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: أُخبِرَ رسولُ الله ﷺ أنه يقول: لأقومنّ الليل، ولأصومنَّ النهار ما عشت، فقال رسول الله ﷺ: «آنت الذى تقول ذلك؟ فقلت له: قد قلته يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: فإنك لا تستطيع ذلك، فصم، وأفطر، ونمْ، وقُمْ، وصم من الشهر ثلاثة أيام؛ فإن الحسنة بعشر أمثالها، وذلك مثل صيام الدهر قال قلت فإنى أطيق أفضل من ذلك، قال صم يومًا، وأفطر يومين، قال قلت فإنى أطيق أفضل من ذلك يا رسول الله، قال صم يومًا، وأفطر يومًا، وذلك صيام داود وهو أعدل الصيام قال قلت فإنى أطيق أفضل من ذلك قال رسول الله ﷺ: لا أفضل من ذلك...»(١).

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ٣/٢١٦، ٢١٧.

وكان عبد الله يجيد القراءة والكتابة، وقد شغف بكتابة أحاديث الرسول ﷺ، وتسجيلها، وكانت له صحيفة يدون فيها هذه الأحاديث سماها «الصادقة» وهو بذلك يعتبر أول من نال شرف كتابة الحديث النبوى وتدوينه، وقد اعترف له أبو هريرة رضى الله عنه بهذا السبق عندما قال - كما جاء فى صحيح البخارى - ما من أصحاب النبى ﷺ أحد أكثر حديثًا عنه منى إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب[١].

وكان - رضى الله عنه - على كثرة عبادته، وولعه بكتابة أحاديث رسول الله ﷺ مجاهداً فى سبيل الله، فقد حضر الغزوات التى وقعت بعد إسلامه، وشارك أباه فى فتوحاته الإسلامية، فقد روى أنه كان حامل الراية فى موقعة اليرموك التى كانت بقيادة والده، وكان فى مقدمة المجاهدين الذين فتحوا مصر، وأخرجوا أهلها من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام، توفى رضى الله عنه فى مصر عام ٦٥هـ.

المعنى الإجمالى

أنبأنا القرآن الكريم أن بعض الكتب السماوية التى أنزلت

---

(١) فتح البارى ١ / ٢٤٩.

قبل القرآن الكريم قد بشرت ببعثة رسولنا محمد ﷺ قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ... ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ... ﴾ [الصف: ٦].

وكان اليهود يعلمون صفته من التوراة، ويدعون الله أن ينصرهم بهذا النبى المبعوث فى آخر الزمان الذى يجدون صفته فى التوراة، وعندما سئل عبد الله بن عمرو عن صفة نبينا محمد ﷺ فى التوراة، وكان قد قرأها، أشار إلى أنه موصوف فى التوراة ببعض صفاته التى ذكرت فى القرآن فقد وصف فيها بأنه شاهد، ومبشر ونذير، وحرز للأمة العربية، وهو عبد من عباد الله المخلصين، متوكل على الله، ومعتمد عليه فى كل أمر من أموره، ليس جافيًا ولا خشن المعاملة مع الناس، لكنه لين الجانب، موطأ الأكناف، خفيض الصوت حليم، يعفو عمن ظلمه، ويحسن إلى

من أساء إليه، وقد أنسأ الله أجله حتى أكمل دينه، وأتم نعمته على المسلمين، وعاد الناس إلى توحيد الله بعد انحرافهم إلى عبادة الأصنام، وقد هدى الله به، وبكلمة لا إله إلا الله قلوبًا كانت مجبولة على الشرك، مطبوعة على الكفران، وفتح بهما عيونا قد عميت عن نور الحق، وآذانًا قد تصامت عن نداء الإيمان، ودعوة الحق.

من المباحث اللغوية :

(أَجَل) حرف جواب بمعنى نعم.

(مبشرا) البشارة المطلقة لا تكون إلا فى الخير، وتكون بالشر إذا قيدت مثل قوله تعالى : ﴿**فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ وهى حينئذ استعارة تهكمية.

(ونذيرا) الإنذار الإبلاغ، ولا يكون إلا فى التخويف، والنذير المحذر، فعيل بمعنى مُفْعِل، ومن أمثال العرب : قد أعْذَرَ مَنْ أنْذَرَ، ومعناه من أعلمك أنه يعاقبك على المكروه الذى يقع منك فى المستقبل ثم أتيت المكروه فعاقبك، فقد جعل لنفسه عذراً يكف به لائمة الناس عنه[١].

---

(١) لسان العرب / نذر.

ومعنى الصفتين أن الرسول ﷺ يبشر المؤمنين، والطائعين بالجنة، وينذر الكفار، والعصاة بالنار وعذاب الله.

(وحرزا للأميين) أى حافظًا لهم، وأصل الحرز الموضع الحصين، ومكان حريز أى حصين.

(ليس بفظ ولا غليظ) الفظ السيئ الخلق، الجافى الطبع، والغليظ القاسى القلب.

(ولا سخاب فى الأسواق) السخب فى الأسواق (بالسين) والصخب (بالصاد) رفع الصوت بالخصام.

(الملة العجواء) ملة إبراهيم عليه السلام التى غيرتها العرب عن استقامتها ورأى أعوج غير مستقيم.

وفى (أساس البلاغة للزمخشرى) أنه يقال: فى العود عَوَج بفتح العين، وفى الرأى عِوَج بكسرها.

ملامح بلاغية :

(والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن) أكد هذا الخبر بالقسم بالله عز وجل، والجملة الاسمية، وإدخال (إنّ) عليها، وإدخال اللام على خبرها، للاهتمام بأمر هذا الخبر وإثباته، وإن أنكره المعاندون الجاحدون.

(وحرزا للأميين) الحرز فى الأصل المكان الحصين، استعير لرسول الله ﷺ ؛ لأن العرب صاروا به أقوياء أعزة، وهى استعارة تصريحية أصلية؛ لأنها فى اسم جامد.

(ليس بفظ ولا غليظ) التفات من الخطاب إلى الغيبة، فبعد أن كان الكلام مبنيا على الخطاب – إنا أرسلناك – أنت عبدى – سميتك المتوكل، تحول إلى الغيبة (ليس بفظ ولا غليظ).

وهذا الالتفات ينبه ذهن السامع، ويزيده يقظة ونشاطًا، ذكر صاحب الكشاف عند تفسير قوله تعالى: ﴿ ... **مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ أن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظًا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد.

شرح وبيان

(... أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة) المقصود من رسول الله – كما هو واضح – رسولنا محمد ﷺ.

والتوراة هى الكتاب الذى أنزله الله على نبيه موسى عليه السلام جملة واحدة.

(والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن) أى إنه ﷺ موصوف فى التوراة بأوصاف أقل من الأوصاف التى وصف بها فى القرآن، لأن أوصافه فى التوراة كانت من قبيل البشارات وقد اشتمل القرآن الكريم على صفات كثيرة لرسول الله ﷺ منها قوله تعالى: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾[آل عمران: ١٥٩]

وقوله تعالى: ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا** ﴾[الأحزاب: ٤٥، ٤٦]

وقوله تعالى: ﴿ **مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ [القلم: ٤].

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا** ﴾ هذه آية من سورة الأحزاب وقد اتفق نزولها فى القرآن الكريم، والتوراة.

ويلاحظ أن الله سبحانه وتعالى لم يناد نبيه ورسوله

محمداً ﷺ باسمه المجرد، بل ناداه بوصف النبوة، والرسالة تكريماً له، وتعظيماً لشأنه.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ [الأحزاب: ١].

وفي الوقت نفسه نجد القرآن يحكي أن الله سبحانه وتعالى قد نادى أنبياءه، ورسله السابقين عليهم السلام بأسمائهم المجردة قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ...﴾ [البقرة: ٣٥]

وقال تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وقال تعالى: ﴿ **يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ** ﴾ [ص : ٢٦] .

وقال تعالى: ﴿ **إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا...** ﴾ [آل عمران: ٥٥] .

﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا** ﴾ أى شاهدا لأمتك يوم القيامة بتصديقهم، قال تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾[البقرة: ١٤٣]

قال صاحب الكشاف عند تفسير هذه الآية: «روى أن الأمم يوم القيامة يجحدون بتبليغ الأنبياء فيطالب الله الأنبياء بالبينة على أنهم قد بلغوا، وهو أعلم فيؤتى بأمة محمد ﷺ فيشهدون، فتقول الأمم من أين عرفتم؟ فيقولون علمنا ذلك بإخبار الله فى كتابه ، الناطق على لسان نبيه الصادق، فيؤتى بمحمد ﷺ فيسأل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بعدالتهم»(١).

وقد روى البخارى عن أبي سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «يدعى نوح يوم القيامة فيقول لبيك، وسعديك يا رب فيقول: هل بلغت؟ فيقول نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟

---

(١) الكشاف ١ /٩٩.

فيقولون ما أتانا من نذير، فيقول من يشهد لك؟ فيقول محمد، وأمته فيشهدون أنه قد بلغ، ويكون الرسول عليكم شهيداً فذلك قوله جل ذكره: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾(١).

وهذه منزلة عظيمة اختص الله بها محمداً ﷺ، وأمته يوم القيامة، ولذلك تشرئب أعناق الناس من الأمم السابقة إلى تلك المنزلة الرفيعة، ويودون أن لو كانوا من أمة محمد ﷺ، فقد روى جابر عن النبى ﷺ أنه قال: «ما من رجل من الأمم إلا ودّ أنه منا أيتها الأمة ما من نبى كذبه قومه إلا ونحن شهداؤه يوم القيامة أن قد بلغ رسالة الله ونصح لهم»(٢).

ولعلك أيها القارئ تتساءل لماذا لم يشهد الله لأنبيائه السابقين ابتداء، دون حاجة إلى شهادة محمد ﷺ وأمته؟

والإجابة عن مثل هذا التساؤل ذكرها الإمام الرازى فى تفسيره قائلاً: «الحكمة فى ذلك تمييز أمة محمد ﷺ فى الفضل عن سائر الأمم بالمبادرة إلى تصديق الله تعالى، وتصديق جميع الأنبياء، والإيمان بهم جميعًا، فهم بالنسبة إلى سائر الأمم كالعدل

---

(١) فتح البارى ٨ / ٢١.　　(٢) نفسه ٨ / ٢٢.

بالنسبة إلى الفاسق، فلذلك يقبل الله شهادتهم على سائر الأمم ولا يقبل شهادة الأمم عليهم إظهارًا لعدالتهم، وكشفًا عن فضيلتهم ومنقبتهم»[1].

(ومبشرا ونذيرًا وحرزا للأميين) أى حافظًا يحفظ أمة العرب بدينه الذى وحدهم بعد تفرق، وقواهم بعد ضعف، والأميون جمع أمي وهو الذى لم يتعلم القراءة والكتابة، وهو منسوب إلى الأم إشارة إلى أنه بقى على حالته التى ولدته أمه عليها، وسمى العرب أميين،؛ لأنهم كانوا لا يعرفون القراءة والكتابة إلا قليلاً منهم وقد وصفهم القرآن بهذه الصفة فى أكثر من موضع قال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ** ﴾ [الجمعة: ٢].

وقد ذكر الإمام القرطبى عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ...** ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

– قول النبى ﷺ : «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب».

وقول ابن عباس رضى الله عنهما: «كان نبيكم ﷺ أميًا، لا يكتب ولا يقرأ، ولا يحسب»[2].

---

(١) مجلد ٢/٢/١١١.

(٢) ص ٢٧٣٤، ٢٧٣٥.

وقد كانت صفة الأميّة فى رسول الله ﷺ وسيلة لإظهار صدقه، وتبليغه القرآن عن ربه؛ لأنه لو كان يعرف القراءة والكتابة، لقال المشركون إنه ألّف القرآن من عنده قال تعالى: ﴿ **وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٤٨]

أما وصف العرب آنذاك بأنهم أميون، فهو بيان للواقع، وإظهار لحالهم التى كانوا عليها، وليس مدحا لتلك الأمية، أو تنويهًا بها، بل إن أميتهم كانت سببًا فى استخفاف اليهود بهم، وقد حكى القرآن عنهم ذلك فى قوله تعالى: ﴿ **وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ...** ﴾ [آل عمران: ٧٥].

وإياك أيها القارئ أن يخطر ببالك أن الإسلام يحب الأمية، أو يرغب فيها؛ فإن طلب العلم فى الإسلام فريضة على كل مسلم، ومسلمة، واقرأ قوله تعالى: ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾ [المجادلة: ١١]، وقوله: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر: ٢٨] - تدرك منزلة العلم،

والعلماء فى الإسلام، وقد رفع رسول الله ﷺ العالِمَ على العابد درجات، ودرجات حين قال: «إن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»(١).

وما أحسن قول على بن أبى طالب - رضى الله عنه - فى أهل العلم:

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم
على الهدى لمن استهدى أدلاءُ
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه
والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حيا به أبدا
الناس موتى وأهل العلم أحياء

(أنت عبدى ورسولى) كلمة العبد تطلق ويراد بها الإنسان مطلقا؛ لأنه مربوب لله عز وجل، وقد يراد بالعبودية الخضوع والتذلل والطاعة(٢).

---

(١) أبو داود والترمذى.
(٢) لسان العرب (عبد).

وقد بلغ رسول الله ﷺ فى طاعة الله، والخشوع له وعبادته منزلة خاصة لم يرق إليها أحد من الناس حتى الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين؛ ولذلك شرفه الله بالإضافة إليه فى قوله: (أنت عبدى ورسولى) وكذلك شرفه بالإضافة إليه فى قوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا . . . ﴾ [الإسراء: ١]

وقد اختار ﷺ وهو فى أشرف الأحوال، وأسمى الدرجات أن يشرفه الله بهذه العبودية. روى الإمام الرازى فى تفسيره أن رسول الله ﷺ لما وصل إلى الدرجات العالية، والمراتب الرفيعة فى المعراج أوحى الله إليه يا محمد بم نشرفك؟ قال يا رب بأن تنسبنى إلى نفسك بالعبودية.

وهذه العبودية الخالصة لله يتشوف إليها أكابر المسلمين، وتهوى إليها أفئدتهم، وتتعلق بها قلوبهم، فكان الإمام على ابن أبى طالب (كرم الله وجهه) يقول: كفى بى فخراً أن أكون لك عبداً، وكفى بى شرفًا أن تكون لى ربًّا، اللهم إنى وجدتك إلهًا كما أردت، فاجعلنى عبداً كما أردت.

وقال القاضي عياض:

ومما زادني عجبًا وتيها وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي وجعلك خير خلقك لي نبيا

وقد تمثلت هذه العبودية لله في رسول الله ﷺ، فعاش بين أصحابه متواضعًا، لا يتعالى عليهم، ولا يحب أن يكون مميزًا بينهم، فقد روى أنه كان في سفر مع أصحابه فلما حان موعد الطعام، عزموا على إعداد شاة يأكلونها فقال أحدهم: عليَّ ذبحها، وقال الآخر: عليَّ سلخها، وقال الثالث: عليَّ طبخها فقال النبي ﷺ: وعليَّ جمع الحطب، فقالوا: يا رسول الله نحن نكفيك العمل فقال: علمت أنكم تكفونني ولكني أكره أن أتميز عليكم، وإن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه مميزًا بين أصحابه.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه دخلت السوق مع الرسول ﷺ ليشتري سراويل، فوثب البائع إلى يد النبي يقبلها، فجذب يده ومنعه قائلاً: هذا ما تفعله الأعاجم بملوكها ولست بملك إنما أنا رجل منكم ثم أخذ السراويل فأردت أن أحملها فأبى وقال: صاحب الشيء أحق بأن يحمله.

وفى وصفه بالعبودية لله، وأنه رسوله إشعار للمسلمين فى كل زمان ومكان ألا يفرطوا فى رفعته عن منزلته التى ارتضاها لنفسه، وارتضاها لها ربه، كما فعل النصارى من قبل؛ ولذلك قال ﷺ : «لا تُطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله»(١).

وصدق الله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ... ﴾ [الكهف: ١١٠].

(سميتك المتوكل) سمى الله رسوله ﷺ المتوكل؛ لأنه كان يتوكل على الله فى كل أموره أى يفوض أموره إليه، ويتقبل النتائج التى أرادها الله سبحانه وتعالى، وكان ﷺ يتوكل على الله بقلبه، ويأخذ بالأسباب، فيعد لكل أمر عدته، ثم يرضى بعد ذلك بما قضاه الله ، وأراده بنفس راضية مطمئنة، وقد علّم أمته أن يتوكلوا على الله ويأخذوا بالأسباب العادية فقال: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا»(٢).

فهذه الطيور تركت أعشاشها، وخرجت تبحث عن أرزاقها،

---

(١) فتح البارى ٦ / ٥٥١.
(٢) مسند الإمام أحمد ١ / ١٨٢.

فرزقها الله تعالى، ورجعت إلى أعشاشها ممتلئة البطون، ولو أنها بقيت قابعة في أعشاشها، لهلكت جوعًا، ولذلك قال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني وقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة.

(ليس بفظ ولا غليظ) هاتان الصفتان موافقتان لقوله تعالى في القرآن الكريم: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وهنا يظهر لنا تساؤل وهو أن الله نفى عنه ﷺ الغلظة في التوراة وفي آية (آل عمران) السابقة ثم أمره بالغلظة في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ...**﴾ [التوبة: ٧٣، والتحريم: ٩]

فهل يعتبر هذا تعارضًا؟

والجواب: ليس في هذا تعارض، ويظهر ذلك من وجهين:

أحدهما: أن نفي الغلظة محمول على أن هذا طبعه الذي جبل عليه، وأمره بها محمول على المعالجة والتكلف.

ثانيهما: أن نفي الغلظة عنه بالنسبة للمؤمنين كما في

قوله تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩] .

والأمر بالغلظة بالنسبة للكفار والمنافقين كما في الآيتين[١] .

(ولا سخاب في الأسواق) أى أنه ﷺ ليس صياحًا فى الأسواق ولا صخابًا .

وقد استدل ابن حجر بنفى هذه الصفة عن رسول الله ﷺ على أن دخول الإمام الأعظم السوق لا يحط من مرتبته؛ لأن النفى ورد فى ذم السخب، لا عن أصل الدخول[٢] .

ولذلك رد الله على المشركين عندما قالوا: ﴿ مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ . . . ﴾ [الفرقان: ٧] .

بقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان: ٢٠] .

فدخول الأسواق ليس عيبًا يحط من مرتبة أى إنسان مهما علا قدره، وارتفعت منزلته، ما دام مبتعداً عن شرور هذه الأسواق، ملتزمًا بآدابها .

(ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر) يعنى

---

(١) ينظر فتح البارى ٨ / ٤٥٠ .
(٢) فتح البارى ٢ / ٤٠٢ .

أنه ﷺ لا يقابل سفاهة الناس، وجهالتهم، وسوء أخلاقهم بمثلها، ولكنه يعفو عنهم ، ويتجاوز عن هفواتهم، بل إنه كان يصل من قطعه، ويعطى من حرمه ويحسن إلى من أساء إليه، وهذا أدب رفيع من أدب الإسلام حث عليه القرآن، وأمر المسلمين به، قال تعالى: ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٩٩]

وقال: ﴿ **وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** ﴾

[فصلت: ٣٤]

ولو لم يتسامح الناس، ويغضى بعضهم عن هفوات بعض، لانقلبت حياتهم إلى عذاب مقيم، وجحيم لا يطاق؛ لأنهم جميعًا ليسوا معصومين من الأخطاء، والكمال فيهم بعيد المنال وصدق من قال:

ولست بمستبق أخا لا تلمه ... على شعث أى الرجال المهذب؟

ومن قال:

من لك بالمهذب الندب[1] الذى

لا يجد العيب إليه مختطى

---

(١) الندب الرجل الخفيف فى قضاء الحاجات.

إذا تصفحت أمور الناس لم
تلف امرأ حاز الكمال فاكتفى

(ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله) أى لن يميته الله حتى ينفى الشرك، ويحطم الأصنام، ويقيم دولة التوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له، وقد نصر الله رسوله على المشركين وحطم الأصنام التى كانت منصوبة على الكعبة يوم فتح مكة وهو يقول: ﴿ **جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا** ﴾ [الإسراء: ٨١] .

وعادت الملة إلى استقامتها التى كانت عليها أيام نبى الله إبراهيم عليه السلام وانحرف بها الناس إلى عبادة الأصنام، وقد حقق الله وعده ، وأنسأ أجل رسوله محمد ﷺ حتى أكمل الدين وأتم النعمة وأنزل قوله: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ [المائدة: ٣] .

روى الإمام فخر الدين الرازى فى تفسيره أن رسول الله ﷺ لما قرأ هذه الآية على الصحابة رضوان الله عليهم، فرحوا جداً، وأظهروا السرور العظيم إلا أبا بكر (رضى الله عنه) فإنه بكى فسئل عنه فقال: هذه الآية تدل على قرب وفاة رسول الله (ﷺ) فإنه ليس بعد الكمال إلا الزوال، فكان ذلك دليلاً على كمال علم

الصديق حيث وقف من هذه الآية على سرّ لم يقف عليه غيره، وقالوا: إن رسول الله ﷺ لم يعمر بعدها إلا واحداً وثمانين يوماً أو اثنين وثمانين يوماً[1].

(ويُفتَحُ بها أعينٌ عمى وآذان صم وقلوب غلف) أى ويفتح بلا إله إلا الله أعين عمى... وليس العَمَى، والصممُ، وتغليفُ القلوب على حقيقته، بل هو مجاز عن الضلال وعدم الاهتداء إلى طريق الحق والفلاح.

قال صاحب الكشاف فى قوله تعالى: ﴿ **وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٧٢] .

«الأعمى مستعار ممن لا يدرك المبصرات لفساد حاسته، لمن لا يهتدى إلى طريق النجاة»[2].

وقد هدى الله بلا إله إلا الله، وبرسوله محمد ﷺ كثيراً من الضالين الذين كانوا يعبدون من دون الله آلهة أخرى وأخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان قال تعالى: ﴿ **فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ...** ﴾ [الأنعام: ١٢٥] .

---

(١) مجلد ٦/ ١/ ١٤٢.

(٢) ٢/ ٣٦٩.

الحديث السادس

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «**من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسّر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلمًا ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه ، ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقًا إلى الجنة ، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه**» .

(رواه مسلم)

راوى الحديث :

سبق التعريف براوى الحديث أبى هريرة - رضى الله عنه -

المعنى الإجمالى

من المعروف أن الإنسان مدنىّ بطبعه، يعيش فى مجتمع من الناس يألفهم ويألفونه، ويتبادل معهم منافع الحياة المختلفة، وقد خلق الله الناس فى هذه الدنيا متفاوتين فى أجسامهم، وقدراتهم، ومواهبهم حتى يتكاملوا، ويتعاونوا فيما بينهم وصدق من قال:

الناس للناس من بدو وحاضرة

بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

والمسلمون كالجسد الواحد إذا تألم منه عضو، تداعى له سائر الأعضاء بالحمى، والسهر.

وفى هذا الحديث دعوة إلى تضامن المسلمين، وتعاونهم فيما يعترض طريقهم من مشقات، وعقبات، فعلى المسلم أن يفرج عن أخيه المكروب كربته، ويخرجه من ضيقه، وشدته، وييسر على المعسر على قدر جهده، وطاقته، وأن يستر على أخيه المسلم هفوته، وزلته وأن يكون نافعًا للناس، معينًا لهم، قاضيًا لحوائجهم، فخير الناس أنفعهم للناس.

وفى الحديث بيان لفضل العلم، ومنزلة العلماء، وما حباهم

الله به من جزيل الثواب، وعظيم المثوبة، وفيه أيضًا بيان لقيمة العمل الصالح، وأنه الطريق إلى النجاح والفلاح، وأن قيمة الإنسان بعمله، وما قدمت يداه، ولن ينفعه نسبه، ورفعة آبائه، وأجداده إذا قعدت به همته عن العمل الصالح، والسعى الجميل.

من المباحث اللغوية :

(نفّس) فرّج وكشف. والنفْس الروح يقال: خرجت نفس فلان أى روحه ونَفْسُ الشىء – ذاته.

وشىء نفيس أى يتنافس فيه ويرغب، ونَفُس الشىء نفاسة، فهو نفيس، وهذا أنفس مالى أى أحبه، وأكرمه عندى.

(كربة) شدة تملأ النفس همًّا وغمًّا، وكَرَبَهُ الأمرُ، والغم يكربه كربًا، اشتد عليه فهو مكروب، واكترب لذلك اغتم.

(يسّر على معسر) اليسر، واليسار، والميسرة – السهولة والغنى، واليسر ضد العسر.

(والله فى عون العبد) العون – الظهير والمعين على الأمر يطلق على الواحد والاثنين والجمع، والمذكر والمؤنث، والعون بمعنى المعونة وهو المراد هنا.

(ما كان العبد فى عون أخيه) (ما) مصدرية ظرفية وهى التى تؤول مع ما بعدها بمصدر ويقدر الزمان قبلها أى والله فى عون العبد مدة كون العبد فى عون أخيه.

(ويتدارسونه بينهم) قراءة المدارسة أن يجتمع جماعة يقرأ أحدهم شيئًا من القرآن، ثم يقرأ الآخر من حيث انتهى الأول.. وهكذا، أو يتعهدونه بالدراسة، وهى تشمل التعلم والتعليم والتفسير.

(السكينة) الطمأنينة.

(غشيتهم الرحمة) أى غطتهم، وعمتهم.

(وحفتهم الملائكة) أى أحاطت بهم.

من المباحث البلاغية :

فى قوله : (غشيتهم الرحمة) كناية عن مغفرة ذنوبهم.

وفى قوله : (وحفتهم الملائكة) كناية عن إكرامهم وعظيم فضلهم.

وفى قوله : (ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه) مجاز عقلى فى موضعين:

١ – بطأ به عمله .

حيث أسند التبطؤ إلى العمل؛ لأنه سببه.

٢ – لم يسرع به نسبه .

حيث أسند عدم الإسراع إلى النسب؛ لأنه سببه.

شرح وبيان

(من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة) أى من كشف عن مؤمن كربة فى الدنيا بنفسه، أو ماله، أو جاهه، أزال الله عنه كربة، وشدة من كرب يوم القيامة.

وتلاحظ أن هذا الحديث جعل جزاء تنفيس الكربة فى الدنيا – تنفيس كربة واحدة فى الآخرة؛ ولذلك أورد الإمام النووى فى شرح الأربعين النووية تساؤلاً قال فيه: « ... فإن قيل قال الله تعالى: ﴿ **مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا** ﴾ [الأنعام: ١٦٠] وهذا الحديث يدل على أن الحسنة بمثلها؛ لأنها قوبلت بتنفيس كربة واحدة، ولم تقابل بعشر كرب يوم القيامة ».

وأجاب عن هذا التساؤل بوجهين :

أحدهما : أن هذا من باب مفهوم العدد والحكم المعلق بعدد لا يدل على نفى الزيادة والنقصان .

والثانى : أن كل كربة من كرب يوم القيامة تشتمل على أهوال كثيرة، وأحوال صعبة، ومخاوف جمة، وتلك الأهوال تزيد على العشرة وأضعافها .

(ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه فى الدنيا والآخرة) المعسر من ركبه الدَّين، وتعسر عليه قضاؤه، والتيسير عليه يكون بإبرائه من الدَّين، أو إنظاره إلى ميسرة، وقد جاء فى الحديث « من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله » وورد أيضاً :

« من أنظر معسراً كان له بكل يوم صدقة » .

وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « حوسب رجل ممن كان قبلكم، فلم يوجد له من الخير شىء، إلا أنه كان يخالط الناس، وكان موسراً، فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر قال : قال الله عز وجل : نحن أحق بذلك منه تجاوزوا عنه » .

وفى رواية أخرى قال الرجل: « . . . وكان من خلقى الجواز فكنت أتيسّر على الموسر، وأنظر المعسر فقال الله: أنا أحق بذا منك تجاوزوا عن عبدى »(١).

والتيسير على المعسر يكون أيضًا بالصدقة عليه، أو إقراضه؛ ليقضى ديونه القديمة، وقد وعد الله المقرضين ابتغاء مرضاة الله أجراً عظيمًا، وجعل ثواب القرض أعظم من ثواب الصدقة؛ لأن المقترض لا يلجأ إلى الاقتراض إلا عند خلو يده من المال، روى ابن ماجه فى سننه عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « رأيت ليلة أسرى بى على باب الجنة مكتوبًا الصدقة بعشر أمثالها، والقرض بثمانية عشر فقلت لجبريل ما بال القرض أفضل من الصدقة؟ قال: لأن السائل يسأل وعنده، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة »(٢).

ويحتمل أن يكون المراد بالمعسر ما هو أعظم من المدين، فيشمل كل من وقع فى شدة، أو تعرض لموقف صعب، فيدخل فى التيسير على المعسر كل من يسر على المتعبين، المكدودين قضاء حوائجهم التى يوقعهم قضاؤها فى ضيق، وفى تعب، ومشقة.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ٤ / ٧١.
(٢) نقلاً عن تفسير القرطبى ص١٠٤٨ ط الشعب.

(يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة) أى يسر عليه جميع أموره فى الدنيا والآخرة جزاء ما يسر على المعسرين.

(ومن ستر مسلمًا ستره الله فى الدنيا والآخرة) أى من ستر عورة المسلم، ولم يكشف عيوبه، وزلاته التى رآها، أو علمها عنه، وقد تناول الإمام النووى فى شرح صحيح مسلم هذا الأمر بشىء من التفصيل فقال:

الستر المندوب إليه هنا المراد به الستر على ذوى الهيئات، ونحوهم ممن ليس معروفًا بالأذى والفساد، فأما المعروف بذلك، فيستحب ألا يستر عليه بل ترفع قضيته إلى ولى الأمر إن لم يخف من ذلك مفسدة؛ لأن الستر على هذا يطمعه فى الإيذاء والفساد، وانتهاك الحرمات، وجسارة غيره على مثل فعله هذا كله فى ستر معصية وقعت وانقضت، أما معصية رآه عليها، وهو بعد متلبس بها فتجب المبادرة بإنكارها عليه ومنعه منها على من قدر على ذلك، ولا يحل تأخيرها، فإن عجز، لزمه رفعها إلى ولى الأمر، إذا لم تترتب على ذلك مفسدة، وأما جرح الرواة، والشهود، والأمناء على الصدقات ، والأوقاف، والأيتام فيجب جرحهم عند الحاجة، ولا يحل الستر عليهم، إذا رأى منهم ما يقدح فى أهليتهم،

وليس هذا من الغيبة المحرمة بل من النصيحة الواجبة وهذا مجمع عليه[1].

وقد حث رسول الله ﷺ المسلمين على ستر العورات فعن ابن عمر قال صعد رسول الله ﷺ المنبر فنادى بصوت رفيع (مرتفع).

« يا معشر مَنْ آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان فى قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم، يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه، ولو كان فى جوف بيته ».

وقد روى أن عمر بن الخطاب كان يعس ليلاً بالمدينة، فسمع صوت رجل فى بيت يتغنى، فتسور عليه، فوجد عنده امرأة، وخمر، فقال: يا عدو الله، أظننت أن الله يسترك، وأنت على معصية، فقال: وأنت يا أمير المؤمنين فلا تعجل، فإن كنت قد عصيت الله واحدة، فقد عصيت الله ثلاثًا، قال الله تعالى: ﴿ **وَلا تَجَسَّسُوا** ﴾ وقد تجسست، وقال تعالى: ﴿ **وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا** ﴾ وقد تسورت عليّ، وقال تعالى:

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ٥ / ٤٤٢.

﴿لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا ﴾ وقد دخلت بيتى بغير إذن، ولا سلام، فقال عمر رضى الله عنه: هل عندك من خير إن عفوت عنك؟ قال: نعم، فقال الرجل: والله يا أمير المؤمنين لئن عفوت عنى لا أعود إلى مثلها أبداً.

فأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ستر على هذا الرجل، وعفا عنه، ولم يذكر اسمه، وفتح أمام الرجل باب التوبة، والرجوع إلى الله تعالى الذى يغفر الذنوب، ويستر العيوب.

(. . . ستره الله فى الدنيا والآخرة) أى لا يفضحه فى الدنيا بين الناس، ويرخى عليه كنفه فى الآخرة، فلا تعلم الناس ذنوبه، وأخطاءه.

وقد نقل الإمام النووى عن بعضهم أن ستر الله عليه فى الآخرة يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يستر معاصيه وعيوبه عن إذاعتها فى أهل الموقف.

الثانى: ترك محاسبته عليها، والأول أظهر لما جاء فى الحديث الآخر سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم[١].

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ٥ / ٤٥٠.

فقد روى أن رجلاً قال لابن عمر كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى قال سمعته يقول: «يدنى المؤمن من ربه يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه، فيقول هل تعرف فيقول أى رب أعرف قال فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا، وإنى أغفرها لك اليوم فيعطى صحيفة حسناته، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رءوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على الله»، ويظهر أنه لا فرق بين التعبير بـ (مؤمن) فى قوله ﷺ: (من نفس عن مؤمن كربة إلخ) وبين التعبير بـ (مسلما) فى قوله (ومن ستر مسلمًا ستره الله فى الدنيا والآخرة) لأنه لا فرق بين المسلم والمؤمن المعهودين فى ميزان الشرع الحكيم، ويؤيد ذلك قوله ﷺ فى حديث آخر: «... ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة...»[1] والله أعلم.

«وقد يقال: إن الحديث قد جعل جزاء من يفرج كربة أخيه أخرويا فقط، وجزاء الميسّر، والساتر دنيويًا، وأخرويًا معًا، مما يشعر بأن الآخرين أجزل ثوابًا وأعظم أجرًا، وليس الأمر كذلك، فإن كروب الآخرة أشد هولاً، وفزعا، مما عداها، وتفريجها أعظم

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ٥ / ٤٤٢ ط الشعب.

ما يطمع فيه المسلم على أنه يحتمل أن يكون قد حذف في الأسلوب ما يستفاد من المقام، وما يدل عليه الذى يليه من الكلام ».

(والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه) أى أن الله تعالى يعين العبد الذى يعين إخوته المسلمين، ويمده بتأييده، وتوفيقه، فمن أراد أن يكون الله عونًا له، ويمنحه التوفيق، والسداد فى أمره كله، فليكن فى عون المسلمين، يقضى لهم حوائجهم، ويبذل لهم من ماله، أو من جاهه، أو من قوته، ما يذلل لهم صعاب الحياة ومشقاتها، حكى أن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يتعاهد الأرامل فيستقى لهن الماء بالليل ورآه طلحة داخلاً بيت امرأة ليلاً، فدخل عليها نهاراً فإذا هى عجوز عمياء، مقعدة، فقال لها: ما يصنع هذا الرجل عندك؟ قالت له منذ كذا، وكذا يتعهدنى بما يصلح شأنى ويخرج الأذى عنى، ويَقِمُ لى بيتى أى يكنسه.

والحمد لله فإن الخير موجود فى الأمة الإسلامية إلى يوم القيامة، فكثيراً ما تجد أهل الخير والصلاح فى أيام الحج يخدمون الضعفاء والمرضى ويقضون لهم حاجاتهم، ويتعهدونهم بالعناية،

والرعاية ابتغاء مرضاة الله، وكثيراً ما تقرأ فى الصحف أن أهل الفضل، واليسار يتبرعون بأموالهم لمساعدة المحتاجين الذين لا يجدون ما ينفقون ، ويشترون الأدوات التى تساعد المعوقين، وأصحاب العاهات وفى ذلك فليتنافس المتنافسون.

(ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة) أى أن من سار فى طريق العلم، وأخذ فى أسباب تحصيله، وفقه الله إلى طاعته، وهداه إلى صراطه المستقيم، وجعله فى الآخرة من أهل الجنة.

وفى هذا بيان لفضيلة العلم، وإظهار لمنزلة العلماء، وفى الحديث «العلماء ورثة الأنبياء» (ومعلوم أنه لا رتبة بعد النبوة ولا شرف فوق الوراثة لتلك الرتبة) وطلب العلم من أفضل القربات إلى الله، وأعلاها شأنًا وحسبك قوله ﷺ : «لأن تغدو فتتعلم بابا من العلم خير من أن تصلى مائة ركعة».

ولذلك أوصى الحكماء أبناءهم بطلب العلم بهمة ونشاط؛ فقد جاء فى وصايا لقمان لابنه : يا بنى جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن الله سبحانه يحيى القلوب بنور الحكمة، كما يحيى الأرض بوابل السماء، ومن كلام الإمام على بن أبى طالب كرم الله

وجهه: العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم حاكم والمال محكوم عليه، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو بالإنفاق.

(وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله...) أى ما اجتمع قوم فى المساجد، أو الأماكن التى تتخذ للعبادة، والطاعة، وخصت بالذكر باعتبار الغالب ومثلها كل مكان يتخذ لنفس الغرض.

(يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم...) أى يجتمعون لقراءة القرآن ويتدارسونه أى يتعهدونه بالدراسة وهى تشتمل القراءة وتعلم القرآن وتعليمه، وتفسيره ودراسة علومه المختلفة.

(... إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده) أى يخلق الله فى قلوبهم السكينة والوقار، وعمتهم الرحمة، فغفر الله ذنوبهم، وأحاطت بهم الملائكة تكريمًا لهم، وتعظيمًا لعملهم، واستماعًا لما يتلون من القرآن.

وقد روى أن الملائكة نزلت لتستمع لتلاوة الصحابى الجليل أسيد بن حضير ففى الحديث أن أبا سعيد الخدرى حدث أن أسيد

ابن حضير رضى الله عنه بينما هو ليلة يقرأ فى مربده، إذ جالت فرسه، فقرأ، ثم جالت أخرى فقرأ، ثم جالت أيضًا قال أسيد فخشيت أن تطأ (يحيى) فقمت إليها فإذا مثل الظلمة فوق رأسى فيها أمثال السرج، عرجت فى الجو حتى ما أراها قال: فغدوت إلى رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله بينما أنا البارحة من جوف الليل أقرأ فى مربدى، إذ جالت فرسى، فقال رسول الله ﷺ اقرأ ابن حضير قال فقرأت، ثم جالت أيضًا، فقال رسول الله ﷺ اقرأ ابن حضير، قال فقرأت ثم جالت أيضًا، فقال رسول الله ﷺ اقرأ ابن حضير قال فانصرفت وكان (يحيى) قريبًا منها خشيت أن تطأه فرأيت مثل الظلة فيها أمثال السُّرُج عَرَجَت فى الجو حتى ما أراها فقال رسول الله ﷺ تلك الملائكة كانت تستمع لك ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستتر منهم.

(... وذكرهم الله فيمن عنده) أثنى عليهم فى الملأ الأعلى، وهم الملائكة.

(ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه) قال الإمام النووى فى شرح صحيح مسلم: معناه من كان عمله ناقصًا لم يلحقه بمرتبة أصحاب الأعمال فينبغى ألا يتكل على شرف النسب، وفضيلة الآباء، ويقصر فى العمل[1].

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ٥ / ٥٥١.

ومعلوم أن الأنساب لا تفيد مع سوء الأعمال قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عند اللَّه أَتْقَاكُمْ ﴾ .

وقد حذر رسول الله ﷺ أقرباءه من الاتكال على شرف النسب، فإنه لن يغنى عنهم من الله شيئًا، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئًا، يا بنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئًا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئًا، ويا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغنى عنك من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد سلينى ما شئت من مال لا أغنى عنك من الله شيئًا»(١).

وأوصى عمر بن الخطاب سعد بن أبى وقاص رضى الله عنهما فقال: يا سعد... لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله فإن الله عز وجل لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكنه يمحو السيئ بالحسن، فإن الله ليس بينه، وبين أحد نسب إلا طاعته، فالناس شريفهم، ووضيعهم فى ذات الله سواء، الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعاقبة، ويدركون ما عنده بالطاعة، فانظر الأمر الذى

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ١/ ٤٨٣.

رأيت النبى ﷺ عليه منذ بعث إلى أن فارقنا، فالزمه فإنه الأمر، هذه عظتى إن تركتها، ورغبت عنها، حبط عملك، وكنت من الخاسرين.

ومن كلام الإمام الغزالى: من ظن أنه ينجو بتقوى أبيه، كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه، ويروى بشرب أبيه، ويصير متعلماً بتعلم أبيه، ويصل إلى الكعبة ويراها بمشى أبيه.

فما أجمل أن يزيد شرف النسب بحسن العمل، وكرم التقوى وصدق من قال:

لسنا وإن أحسابنا كرمت   يوما على الأحساب نتكل
نبنى كما كانت أوائلنا   تبنى ونفعل مثل ما فعلوا

* * *

الفهـــرس

الموضـــــوع　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　الصفحة

الحديث الثالث

(٣٩ – ٥٤)

الموضوع	الصفحة

الحديث الرابع
(٥٦ - ٦٦)

الموضـــــوع	الصفحة

الحديث الخامس

(٦٧ - ٨٨)

الموضـــــوع الصفحة

الموضــــــوع	الصفحة